الميكروبات
وكرامات الشهداء

الميكروبات

وكـرامـات الشـهـداء

الدكتور
عبد الحميد القضاة
اختصاصي تشخيص الأمراض الجرثومية والأمصال (بريطانيا)
مدير المختبرات التخصصية – إربد

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبات الوطنية
(١٤٦٩ / ٦ / ٢٠٠٤)

٥٧٦
القضاة، عبد الحميد
الميكروبوبات وكرامات الشهداء / عبد الحميد القضاة
اربد: المؤلف، ٢٠٠٤.
(١٣٤) ص.
ر.إ. (١٤٦٩ / ٦ / ٢٠٠٤).
الواصفات: /علم الأحياء الدقيقة // الإسلام /
* تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية.

الطبعة الثانية

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

يوزع مجاناً ويطلب من المؤلف

الموقع على الشبكة www.qudah.com

المحتويات

تقريض بقلم د. همام سعيد	٧
تقريض بقلم د. أحمد الكوفحي	٩
المقدمة.....	١٣
الميكروبات ... ما هي؟	١٥
مستودع الميكروبات الرئيسي.	٢٣
المستودعات المتحركة.	٢٩
الوظيفة الكبرى... !	٣٣
دابة الأرض ... تأكل منسأته.	٤٧
المعاهدة الصامتة ... !	٥٩
القبر... هل هو بيت الدود؟	٦٩
الميكروبات وأجساد الأنبياء.	٨٣
الميكروبات وأجساد الشهداء.	٨١
الميكروبات والغلام الشهيد.	١٠٣

الميكروبـات وشـهداء أحـد.	١٠٩
شهداء... وشهود.. وكرامات!	١١٣
شـهـداء الأرض المـبـاركـة.	١٢١
والـقـافـلـة تـسـيـر.....!	١٣٣
شـاهـد ... وشـهـيد ... !!	١٣٧
الـمـراجـع الـعـربـيـة.	١٣٩
الـمـراجـع الإنـجـلـيـزيـة.	١٤٢

تقريض

بقلم الدكتور همام سعيد/ أستاذ الحديث وعلومه
المستشار الشرعي في المستشفى الإسلامي
الأردن

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه، وبعد.

فشكر الله تعالى لأخينا المفضال، العالم الدكتور عبد الحميد القضاة، على هذا الجهد العلمي المتميز، فلقد قرأت الكتاب من أوله إلى آخره، دون كلل أو ملل، وعشت مع آيات الله في الأنفس والآفاق، حيث عوالم الميكروبات وغلبة هذه المخلوقات على الكون (البحار والأرض والفضاء). وكما هي نعمة الله في النباتات فأكثرها نافع وقليل منها سام فيما يبدو لنا، ونعمة الله في الحيوان فأكثره نافع وقليل منه ضار فيما يبدو لنا، فكذلك الميكروبات، ما أكثر النافع منها وما أقل الضار، ولولا الله ثم هذه الميكروبات لامتلأت الأرض من الفضلات، وبقايا النباتات والحيوانات، ومن ذلك فعلها في جثث الآدميين.

ولقد لفت الدكتور القضاة أنظارنا إلى حماية أجساد الأنبياء والشهداء والعلماء من فتك الميكروبات. لأن الأنبياء والشهداءأحياء، وكذلك العلماء العاملون. فقد حرَّم الله على الأرض

أن تأكل أجساد الأنبياء والشهداء وورثة الأنبياء. والجديد في هذا الأمر الذي لفت المؤلف أنظارنا إليه أن الميكروبات لا تحلل الجسد البشري خلال حياته؛ لوجود أجهزة المناعة والدفاع، ولما كان الأنبياء والشهداء أحياء كما قال الله تعالى: "وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ"[1]، وقوله: "وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ "[2]. فهاتان الآيتان تثبتان الحياة، وتنفيان الموت عن الشهداء. ونحن نحمل الألفاظ القرآنية على الحقيقة، فالشهيد حيٌّ حياة كاملة وليس ميتاً. ومن هنا كان قدر الله تعالى بحماية أجساد الشهداء والأنبياء من هجوم الميكروبات عليها.

بارك الله في الأستاذ المؤلف على هذا الجهد ونفع به.

٣ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ

٢١/ تموز /٢٠٠٤م

عمان

---

[1] الآية ١٥٤ من سورة البقرة.

[2] الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

تقريض

بقلم الدكتور أحمد الكوفحي
أستاذ الفقه وأصوله / الأردن

إنّ وجوه إعجاز القرآن الكريم المتعدده يُراد منها إثبات أنه كلام الله عز وجل وحده، وصولاً إلى الإيمان بالله وبصدق رسوله صلى الله عليه وسلم، فيما يخبر عن ربه من وحي متلوٍ وغير متلو.

ولا شك أن أعظم هذه الوجوه ظهوراً هو الإعجاز العلمي الذي يتحدث فيه القرآن الكريم عن كتاب الله المنظور، بأسلوب يدفع إلى الإيمان لدى الجاحدين، وزيادة الإيمان لدى المؤمنين، فهو يفتتح الحديث عن حقائق العلم – في الغالب – بعبارة (ومن آياته) ويختتمه تارة بعبارة (إن في ذلك لآيات)، يذكر بعدها صفات العلم أو العقل أو الفقه أو التفكر أو التدبر أو الذكرى أو السمع أو البصر ... الخ، وتارة بأسلوب الإستفهام الإنكاري (ما لكم لا ترجون لله وقارا؟!)، (أفلا تعقلون؟!)، (أفلا تسمعون؟!).

والكتاب الذي نقدم له هو واحد من سلسلة بعضها المطبوع، وبعضها مازال مخطوطاً، صدرت تحت شعار "العلم يدعو إلى الإيمان"، وهكذا يجب أن يكون العلم، وإلا فهو وبال على صاحبه. ومؤلفه الأخ المفضال الدكتور عبد الحميد القضاة جمع بين

العلم والإيمان في فكره وتنشئته وسلوكه واهتمامه وحركته، فهو داعية رباني، وعالم فذٌّ في مجال علم الجراثيم.

لقد أوقفنا هذا الكتاب على حقائق علمية مذهلة في عالم الميكروبات، وصحح لنا الفكرة نحوها، فليست في غالبيتها الساحقة إلا في خدمة الإنسان مباشرة أو من وراء ستار، وميّز بين أنواعها، وعرَّفنا بمهام كل منها، وأطلعنا على توزيع الأدوار بينها وتكاملها، ودورها في النبات والتربة وتهيئتها للغذاء، وأماط اللثام عن محاكاتها في صناعة البنسلين وغيره من المضادات الحيوية.

لقد تناول الكتاب المعلومة العلمية الجديدة بأسلوب شيق مبسط، يدفع القارئ إلى المزيد من المعلومات، وفهم المقصود. كما تناول الكتاب الشواهد القرآنية والنبوية، وأحسن استعمالها، وحقق أغراضها.

وفيما يتعلق بكرامات الأنبياء والشهداء، فقد خصها بنصيب وافر بعد أن أوضح دور الميكروبات في أجساد الأموات الآخرين ممن ليس لهم هذه الكرامة، وأحسن الإستدلال بالنص، وأيده بشهود إثبات من واقع الشهداء، كثرت فيها المرويات عن الثقات.

إنَّ الميكروبات تتعامل مع الأنبياء والشهداء وفق التصنيف الرباني لهم بأنهم أحياء، ولو فارقت أرواحهم الأجساد،

وهذا يشوّقنا لتمني الشهادة في سبيل الله، وحمل مشروع الشهداء حتى ينجز، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

فجزى الله المؤلف أحسن الجزاء، وأمدّ في عمره، وبارك فيه، وأفادنا من غزير علمه.

٦ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ

٢٤/ تـمـــوز /٢٠٠٤م

اربد

المقدمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد.

فهذه شهادة صامتة، لكنها بليغة، بطلها جندي مطيع لربه، لا يتردد ولا يتأخر في التنفيذ ... شاهد مفطور على الصدق، رغم أنه لا ينطق، شاهد جاد، يخاف الله رب العالمين، فيقوم بواجبه دونما كلل أو ملل، ودونما محاباة أو تزلف ... يقوم بعمل عظيم جليل، رغم صغر حجمه وهوانه على الناس ... فهو الشاهد الصادق الصامت بحق.

فشهادة الميكروبات للشهداء، هي تكريم من الله تبارك وتعالى للشهيد أولاً، ولكنها عبرة بالغة "لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ"[1]

فإن كان هذا فعل مخلوقات صغيرة مجهرية تجاه من صدقوا الله، وجادوا بأغلى ما يملكون، ارضاءً له وتمكينا للأمة وتطهيرا للمقدسات ... فما فعلنا نحن المسلمين ... ؟

هل نشارك بالخذلان واللا مبالاة ... فنندم، ولات حين مندم ... أم نبادر لإنقاذ أنفسنا أمام مليك مقتدر في يوم تشخص فيه

---

[1] الآية ٣٧ من سورة ق.

الأبصار، وتشيب لهوله الولدان "يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ"[1].

فإن كنتُ محروما مما هم فيه، وعَجَزتُ أن أكون منهم أو معهم ... فيا ويلتاه إن عَجَزتُ أن أكون شاهدا ناطقا صادقاً منصفاً لهم ... ! ويا ويلتاه إن عَجَزتُ أن أكون مثل مخلوقات الله غير العاقلة التي بعثها الله لتعلمنا الرحمة والوفاء لإخواننا ...

ويا ويلتاه إن عَجَزتُ أن أكون سنداً لهؤلاء تقديرا لعملهم وتكريما لشهادتهم، وستراً لعورات تركوها وراءهم أمانة في أعناقنا ... فيا لها من حياة رخيصة؛ إن عَجَزتُ أن أكون مثل ميكروب عامل بصمت أو غراب عطوف يواري سوءة أخيه ... ! " قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ "[2]

والله نسأل السداد والرشاد والقبول ... وحسن الخاتمة.

المؤلف

اربد - الأردن

---

[1] الآيات ٨٨-٨٩ من سورة الشعراء.

[2] الآية ٣١ من سورة المائدة.

الميكروبات ... ما هي؟

هي مخلوقات حيه، مكونه من خلية واحدة، صغيرة جداً، لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، إلا بعد تكبيرها آلاف المرات، تُقاس طولاً أو عرضاً بالميكرون، أو أجزائه[1] هذه المخلوقات المجهرية مبثوثة في الكون بأعداد هائلة، ولا يوجد في ذاكرة البشر أرقامٌ تحيط بها، وهكذا تبقى أعدادها من أسرار قدرة الله تبارك وتعالى، إذ لا يعلم أعدادها إلا الذي خلقها ... ! وليس ذلك بمقدور البشر، مهما أوتوا من علم ومعرفة.

هذه الميكروبات مختلفة الأنواع والأشكال، فمنها ما يعيش على الفضلات من المواد العضوية، ومنها ما يتعايش مع المخلوقات الأكبر، على مبدأ المنفعة المتبادلة، وبعضها يتطفلُ على غيره مسبباً له المرض. هذه الأشكال من الحياة لا تكون فقط بين الميكروبات والحيوانات الكبيرة، بل توجد أيضا بينها وبين الديدان الصغيرة التي لا تكاد ترى بالعين المجردة ...!!

---

[1] كلمة ميكروبات مأخوذة من كلمة إنجليزية Microbe وتعني أي مخلوق مجهري صغير جدا لا يرى بالعين المجردة، وأصبحت شائعة، ميكروب وميكروبات ويرادفها جرثومة وجراثيم (المنجد). وتقاس بالميكرون، وهو جزء من المليون من المتر. وهذا الميكرون مقسم أيضاً إلى ألف نانومتر، تستعمل لقياس الميكروبات الأصغر مثل الفيروسات.

هذه الجراثيم ... رغم أنها وحيدة الخلية، وأن خليتها أصغر بكثير مما نتصور، إلا أنها تستطيع أن تقوم بكل العمليات الحيوية، من تنفس وتمثيل للطعام والشراب والبناء والتكاثر، لدرجة أن الخلية الواحدة منها إذا أعطيت الطعام اللازم، والحرارة المناسبة، تصبح ملياراً خلال عشر ساعات لا غير ... ! وهي لا تعرف الهرم، بل تستمر بالنمو والانقسام دونما ملل أو كلل.

هذه الجراثيم تعيش مع بعضها على شكل مستعمرات صغيرة نسبياً، والمستعمرة الواحدة ربما تحوي ما بين عشرة إلى عشرين مليون جرثومة، ومع هذا فحجمها لا يتجاوز حجم حبة العدس العادية(شكل رقم ١).

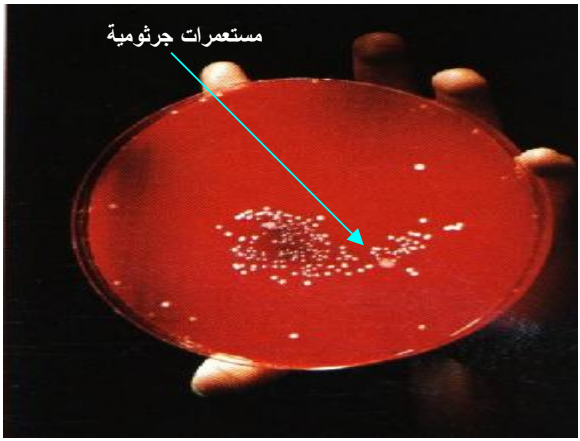

شكل رقم (١): مستعمرات جرثومية.

ومنها ما لا يستطيع الحياة بوجود الأكسجين (اللاهوائي)، ومنها ما يستطيع العيش في البحر الميت رغم ملوحته العالية، ومنها ما يستطيع العيش في درجات حرارة عالية، فيتكاثر في درجة حرارة ١١٣مْ، ويموت برداً إذا انخفضت إلى ٥٥مْ (٥٥ فوق الصفر)، ومنها ما يتكاثر في درجة حرارة ١٧مْ تحت الصفر[١]. فهي مخلوقات عجيبة الأطوار، مختلفة البيئات، متباينة المتطلبات، كل نوع هيأه الله تعالي ليعيش في ظروف مختلفة عن الآخر. وهذا سر وجودها في كل مكان، وقد وجدت في الأرض على عمق آلاف الأمتار، وفي الجو على ارتفاع عالٍ جداً.

والميكروبات منها المتحرك بذاته، بواسطة سوط أو أكثر، يتحرك بها هرباً من عدو أو بحثاً عن رزق، ومنها المتحرك بدون أسواط، محمولاً على غيره من المخلوقات الأخرى، أو على ذرات الهباء المتطايرة في الهواء، كما أن بعضها سريع الحركة، لدرجة يصعب اللحاق بها، وهي تمر أمامك تحت المجهر، وهي أشبه بحركة النجم إذا هوى (Star shooting) كجرثومة مرض الكوليرا.

---

[١] راجع كتاب "عجائب الميكروبات السبع" للمؤلف.

هذه الميكروبات المتباينة في الشكل والطول والعرض، متنوعة أيضاً في الإمكانات والقدرات، والمتطلبات الحياتية، فمنها ما هو بكتيري، ومنها ما هو فطري، أو خمائر أو طفيليات، وأصغرها على الإطلاق هي الفيروسات. ومن عجائب قدرة الله تعالى، أن بعض هذه الفيروسات مفيد للإنسان، وذلك من خلال تدميرها لبعض أنواع البكتيريا الضارة به ... !

كذلك فإن بعض هذه الميكروبات شديد الحساسية، يموت من الجفاف، أو من أشعة الشمس، أو من أي من المطهرات، ولو كانت بسيطة. ومنها ما هو مقاوم لها، لا يتأثر بها، بل يستمر في نموه وتكاثره، مستعملاً المطهرات كغذاء له[1]، ومنها ما يتكيس لسنين طويلة حتى تتهيأ له ظروف مناسبة، للعودة للنشاط والتكاثر.

ويُذكر أن ٣% من الجراثيم، التي عرفها العلماء للآن، هي التي تسبب للإنسان سلسة الأمراض الفتاكة المعروفة، مثل الكوليرا والتيفوئيد والدزنتاريا والجدري والأنفلونزا والسفلس ... الخ، وأن ١٠% من الجراثيم المعروفة تنتهز فرصة ضعف جهاز المناعة عند الإنسان، فتهجم عليه، وتسبب له مرضاً، أو التهاباً عابراً، كالذي يحدث لمريض الإيدز.

---

[1] مثل جرثومة السيدوموناس في المستشفيات

كما أن هناك مجموعة من الميكروبات المختلفة تسبب أمراضاً للحيوانات، ومنها ما ينتقل للإنسان، كالحمى المالطية، وأنفلونزا الطيور، والسل وغيره، وهناك مجموعة من الجراثيم البحرية، التي تسبب أمراضاً لحيوانات البحر المختلفة. ومثل ذلك ما يسبب أمراضاً بكتيرية، أو فطرية، أو فيروسية، للنباتات والمزروعات على اختلاف أشكالها. ورغم هذا تبقى الغالبية العظمى من الجراثيم غير مضرة بالإنسان، بل مفيدة له، بحيث لا تستقيم حياته على وجه الكرة الأرضية إلا بها ... !!

هذه الجراثيم المختلفة، عندها الكثير من الحيل والإجراءات الوقائية، وطرق التملص والتخلص من الصعاب، التي تواجهها في الطبيعة، أو من الأشراك التي تُنصب لها قصداً من قبل الإنسان، كما أن عندها ما يحفظ عليها حياتها واستمرارها، وانبثاثها في كل زوايا الكون، التي وصل لها الإنسان، فهي مخلوقات تحب الحياة كما نحبها نحن. ولهذا لديها من المهارات ووسائل الدفاع عن نفسها، ولحماية جنسها من الانقراض، ما يبهر العقول ويُحيرها. وأخال أن كثيراً من الممارسات البشرية في هذا

المجال، قد أخذت من مثل هذه المخلوقات الصغيرة، التي تتجلى فيها قدرة الخالق تبارك وتعالى[1].

هذه الميكروبات مبثوثة في كل مكان على شكل مجموعات، بل أمم مختلفة. كل نوع إذا استقر في مكان، أفرز مادة كيماوية في محيط وجوده، لا تضره، ولكن تقتل غيره من الأنواع الجرثومية الأخرى، إذا حاولت الاقتراب من محيطه، أو احتلال البقعة التي يعيش عليها. وكأن هذا النوع يضرب سياجاً على منطقة يريد الانفراد بها، ولا يريد أن يشاركه فيها أي ميكروب من نوع آخر، وقوام هذا السياج مادة كيماوية قاتلة، لأي متسلل يحاول اختراقه[2].

هذه المواد الكيماوية التي تفرزها الميكروبات على اختلاف أنواعها، هي ما نسميها بالمضادات الحيوية القاتلة للجراثيم. وقد سخر الله هذه الميكروبات للإنسان تماماً كما سخر له النحل ليستفيد من عسله، فقد عرف الإنسان هذه الأنواع المختلفة من المواد الكيماوية، وحدد أنواع الميكروبات التي تفرزها، والنوع الذي تقتله، وقنن استعمالها حسب تجارب مخبرية مختلفة، واستفاد

---

[1] راجع كتاب عجائب الميكروبات السبع - للمؤلف.

[2] يذكر أن الأسد في غابته يحدد دائرة ملكة الخاصة ببوله، فلا يجوز لأي حيوان من غير عائلته الدخول إليها أو العيش فيها، تحت طائلة العقوبة القاتلة في معاهدة صامتة بلغة متفاهم عليها فطرياً بين هذه الحيوانات، فسبحان الله أحسن الخالقين.

منها الإنسان أيما فائدة، منذ أن اكتشف العالم الإنجليزي "الكسندر فلمنغ" سنة ١٩٢٨م في لندن أول مضاد حيوي وهو البنسلين[١].

وعلاوة على ما تقدم، فهذه العوالم، من الميكروبات الصغيرة، فيها من أسرار الذكورة والأنوثة ما يخلب الألباب. فهي على صغرها فيها الذكر، الذي تنمو عليه شعيرات، من بينها شعيرة طويلة اسمها شعيرة الجنس، وبعد الفحص تحت المجهر الإلكتروني الذي يكبرها عشرات آلاف المرات، وجدت اسطوانة مجوفة، تنتصب عند الحاجة، لتدخل في مكان محدد من جسم الأنثى، وتنتقل من خلالها مادة وراثية معينة للأنثى ... لتصبح بعدها ذكراً وتنمو على جسمها الشعيرات الخاصة بالذكورة... وغير ذلك الكثير، فسبحان من قال في محكم كتابه: "سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ..." [٢]

---

[١] عزل الكسندر فلمنج – الحائز على جائزة نوبل – مادة البنسلين من ميكروب من مجموعة الفطريات اسمه "Penicillum notattum" ورد في كتاب عالم المعرفة رقم ٢٤٥ "ضرورة العلم" تأليف ماكس بيروتز.

[٢] الآية ٣٦ من سورة يس.

مستودع الميكروبات الرئيسي

المستودع الرئيسي للميكروبات، على اختلاف أنواعها، من بكتيريا وفطريات وطفيليات وفيروسات وغيرها هي الأرض. فلا نجد ذرة من تراب جاف أو رطب، أو قطعة من حجر صغير أو كبير، على سطح الأرض، أو في باطنها، إلا وفيه أعداداً هائلة ومدهشة من الجراثيم المختلفة.

هذه الجراثيم وأعدادها في الأرض لا يمكن للبشر حصرها، فهي سريعة التكاثر، وهي في منطقة ما تختلف أعداداً وأنواعاً عن منطقة أخرى، تبعاً لمكونات المنطقة الترابية، ولوفرة المواد الغذائية والماء والأوكسجين. وقد حاول العلماء تعداد ذلك، كما ذكر البرفسور وكسامان في كتابه "جراثيم التربة"، وقد وجدوا أن في الغرام الواحد من التراب الجاف، على عمق إنش، ثمانية ملايين جرثومة حية، أما الميتة فربما كانت أكثر عدداً. وفي الغرام الواحد على عمق أربعة إنشات ستة ملايين جرثومة حية، وهكذا. أما التربة الرطبة والمملوءة بالمواد الغذائية المتحللة، والعناصر المعدنية، فهذه الملايين تنقلب إلى مليارات في الغرام الواحد من التراب ... !!

وهذه الميكروبات لا تعمل على تماسك ذرات التربة بعضها مع بعض فحسب، ولكن لها دور أكبر، بل أدوار حيوية لا تستقيم

الحياة فوق هذا الكوكب ولا تستمر إلا بها، خاصة فيما يتعلق بدورات العناصر الحيوية في الطبيعة، مثل النيتروجين، والكربون والأوكسجين، والكبريت، والفسفور وغيرها.

وخير مثال على ذلك دورة عنصر النيتروجين الحيوية، وما للميكروبات من دور رئيس في ذلك. فالنيتروجين الحر الموجود في الهواء[1] تلتقطه بكتيريا متخصصة في ذلك، وموجودة في التربة اسمها البكتيريا المثبتة للنيتروجين، وهي أكثر من نوع، فمنها ما يثبت النيتروجين في العقد الموجودة في جذور البقوليات، لتساعدها على النمو. ومنها ما يحول النيتروجين الحر إلى أمونيوم (NH_4^+) في التربة، هذه الأمونيوم لا تصمد طويلاً، حيث يتدخل نوع آخر من البكتيريا المختصة؛ لتحويلها إلى نترات (NO_2^-)، ثم إلى نايتريت (NO_3^+)، وهذه تُعَدُّ من الأسمدة المحببة للنباتات بشكل عام، حيث تتغذى عليها لبناء أوراقها وأغصانها وثمارها. وقسم منها يتحول إلى نيتروجين حر، ينطلق في الجو، بفعل نوع آخر من البكتيريا، يعمل عملاً معاكساً للأول (الأول يثبت و الآخر يحرر) (شكل رقم ٢).

---

[1] يتركب الهواء من العناصر الغازية الرئيسية التالية : النيتروجين = ٧٨,٠٥٤% الأوكسجين ٢٠,٩٤٧%، والأرغون ٠,٩٣٤%، وثاني أكسيد الكربون ٠,٠٣١٤%.

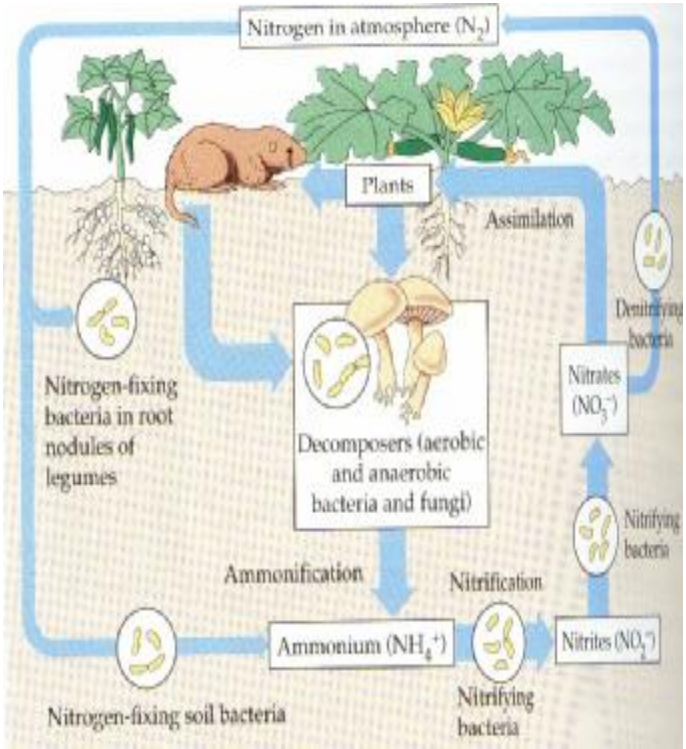

شكل رقم (٢): دورة النيتروجين في الحياة.

إنّ النباتات بأوراقها وأغصانها وثمارها تتغذى عليها الحيوانات، لتهضمها وتستفيد من مكوناتها، لبناء أجسامها

ولحومها وشحومها، وهي بدورها إما أن تكون غذاءً للإنسان أو تموت. وهذه النباتات أو الحيوانات الميتة تتناولها أنواع أخرى من الميكروبات الهوائية، واللاهوائية (بكتيريا وفطريات متنوعة) الموجودة في التربة، لتحللها إلى مكوناتها الأصلية ومنها النيتروجين الذي يتحول بفعل البكتيريا إلى أمونيوم (NO_4^+)، وهكذا تستمر الدورة الحيوية لهذا العنصر المهم إلى ما شاء الله...

فسبحان الذي أوجد هذه المليارات من الميكروبات، وبثها في التربة، كلٌ له تخصص، يقوم بجزء من العمل ليكمله آخر، في تتابع دقيق لا يعلمه إلا الذي لا تخفى عليه خافية.

فلو بقي النيتروجين محجوزاً في الهواء، لماتت النباتات، لأنه عنصر لا بد منه للنمو. وإذا انقطع النبات، تأثرت الأنعام وماتت، وإذا فنيت النباتات والأنعام التي يتغذى عليها الإنسان... فكيف تستمر حياته...؟!

ولو بقي النيتروجين مثبتاً بالتربة، لنقصت نسبته في الهواء، واختل التوازن الغازي فيه، واضطرب التنفس، وتأثرت كل المخلوقات، ولو لم تكن أنواع مختلفة من البكتيريا، كل مختص بجزئية، لا يتعداها في موضوع التعامل مع مركبات النيتروجين، تثبيتاً وتحويلاً وإطلاقاً؛ لبقي في التربة على شكل واحد، لا تستقيم

معه الأمور... فسبحان الذي خلق كل شيء بقدر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

هذا عنصر من عناصر مختلفة، خلقها الله – تبارك وتعالى – بتوازن بديع، ونسب لا تتغير ولا تتبدل، وجعل في الأرض مخلوقات دقيقة لا نراها، تقوم على خدمتنا، وبثها في كل مكان، وأودع في كل ميكروب منها مقدرة معينة، ووظيفة معيَّنة، وهداه لكيفية تنفيذها. فميكروب النيتروجين لا يتدخل بعمل ميكروب الكربون، كل يقوم بواجبه حسب تخصصه، دون كلل أو ملل، وبصمت وهدوء، عبادة وتسبيحاً للواحد الأحد.

المستودعات المتحركة !!

يُعَدُّ كل مخلوق كبير، مرئي بالعين المجردة، مستودعاً متحركاً لأنواع عديدة من الميكروبات . ابتداء من الدودة الصغيرة إلى الفيل الكبير. فلا يوجد مخلوق منها أو بينها معقماً من الناحية الجرثومية، والفارق الرئيسي هو مساحة الجلد، حيث تزداد الميكروبات عدداً على الجسم تبعاً لمساحة جلده.

هذه الحيوانات تحمل على أجسادها مليارات المليارات من الميكروبات المختلفة. ولو مد الله بصر الإنسان، واستطاع أن يرى هذه الميكروبات، لرأينا أجسام الحيوانات، وكأنها غطيت بطبقة من الدقيق الأبيض، ولن نجد ولو ملمتراً واحداً خالياً من آلاف الميكروبات على جلودها. أما ما بداخلها فهو أكثر عدداً، وأعقد تعايشاً.

هذه الحيوانات، بل المستودعات الفرعية المتحركة، تبث ميكروباتها بالمليارات، في كل مكان، من خلال لعابها أو بُرازها أو بولها أو بواسطة تنفسها... الخ، فهي تتلوث يومياً بميكروبات التربة من جهة، وتلوث الهواء والماء والتراب بجراثيمها المختلفة في كل حين، من جهة أخرى.

فالهواء بما يحمل من ذرات ترابية، ومتعلقات غير مرئية، يحمل أعداداً كبيرة من الميكروبات، حيث ذكر العلماء أن الإنسان يأخذ مع كل نفس ما معدله ستون ألف ميكروب. أما في أماكن التلوث والاكتظاظ البشري أو الحيواني، فالأرقام أكبر بكثير. والعطسة الواحدة تنفث في الهواء أعداداً هائلة من الجراثيم ... !!

وهكذا الماء، فله جراثيمه الخاصة، علاوة على تلوثه المستمر، من مخلفات الحيوانات والإنسان، والتي تسبب أحياناً بعض الكوارث الطبية، بما تنقله من أمراض جرثومية معدية كالتيفوئيد، والكوليرا، والدزنتاريا، وغيرها الكثير.

فإذا أخذنا مثالاً واحداً من هذه المخلوقات الكبيرة، وليكن أنظفها وهو الإنسان، لوجدنا فيه ما يستدعي الحيرة والعجب، إذ يعيش على جلده أكثر من عشرين مليار جرثومة.

يذكر الدكتور (كلقمان)[1] المختص بالجراثيم، أن جلد الإنسان بما عليه من ميكروبات مختلفة، ولما فيها من تباين في الشكل والمتطلبات، وما بينها من العداوات والحروب، أو الصداقات والتعاون، أشبه ما يكون بالكرة الأرضية، وما عليها من مخلوقات كبيرة وصغيرة، وأمم مختلفة لوناً ولغة ومعيشة، وما بينها من

---

(1) The Bacteriology of normal skin, by Kligman, in Skin bacteria and their role in infection. 1965.

اختلافات جغرافية وحروب ومعاهدات. كما ذكر العلماء أن السنتمتر المربع الواحد من جلد الإنسان يوجد عليه ما بين مليون إلى خمسة ملايين ميكروب. وبما أن معدل مساحة جلد الإنسان ٢م[٢][(١)]. فإن الواحد منا يحمل على جلده ما بين عشرين إلى مائة مليار جرثومة ، تسرح وتمرح وتأكل وتشرب وتتكاثر على جلودنا دون علمنا أو شعورنا...!

أما فم الإنسان، ففيه العجب، فقد وجد العلماء أن الغرام الواحد، من اللوحة المتكونة على سطح السن فيها ما معدله مائتان وخمسون ملياراً من الميكروبات، ورغم أن الإنسان يفرز يومياً لتراً ونصف اللتر من اللعاب المعقم في فمه، إلا أن الملليتر الواحد يحمل ما معدله سبعمائة وخمسون مليون جرثومة، حال تلوثه بما على الأسنان، وهذا الرقم يزداد إلى سبعة أضعافه بعد النوم.

وما سبق من أرقام، تتضاءل أمام حقيقة جراثيم الأمعاء، والتي تقول: إن الغرام الواحد من براز الإنسان العادي، فيه أكثر من ألف مليار جرثومة...! وهي في معظمها (٩٦-٩٩%) ميكروبات لا هوائية، وتشكل ٣٠% من وزن البراز عند الإنسان العادي[(٢)].

---

(1) Clinical dermatology, by J. Hunter, J. Sauin and Mark dahl 2002.

(2) Medical Microbiology, 20th edition by Jawetz etal 1995.

هذه الجراثيم تتعايش مع الإنسان ما دام حياً، ولا يحدث بينها وبين قوات جهاز المناعة إلا ما يشبه المناوشات البسيطة، لا تلبث أن يسيطر عليها وتهدأ، وفي غالب الأحيان يحصل تبادل منفعة كتقديم بعض الفيتامينات للإنسان.

هذا مثال للإنسان، وهو المخلوق الأنظف، والذي يعي الكثير من هذه الحقائق العلمية، ويتعامل معها بما يخفف من هذه المليارات الهائلة، وسخر الله له الكثير من المطهرات، والمنظفات، وطرق التعقيم...! وفوق هذا وذاك، يوجد عليه وفيه هذه الأعداد المذهلة... فكيف هي الحال إذن مع الحيوانات الأخرى، كالفيل والحصان والحمار والبقر...!!

هذه المستودعات الفرعية، هي بحق مخازن جرثومية متحركة، تبث محتوياتها في كل مكان مع برازها وبولها ولعابها، بل ونَفَسِها دون أن تحس بها، بل دون أن نحس نحن البشر بها، رغم ما أعطانا الله من عقل وبصر وبصيرة، فالميكروبات – على صغرها – مخلوقات تحمل من أسرار الخالق، وعظمته، وقدرته، ما يأسر العقول، ويُحيِّر الألباب، فسبحان من خلقها، وبثها، وسخرها، لخدمة الإنسان.

الوظيفة الكبرى !!

قليلون هم الذين يعملون الخير في الخفاء بصمت وهدوء... من يراهم للوهلة الأولى، لا يحسبهم قادرين على شيء ... إلا إذا أمعن النظر فيهم، بفراسة المؤمن التي لا تخيب... ورغم قلة هذا النفر ،إلا أن التقدم والتطور والنماء والإنتاج، بل والإبداع كله، في هذه الحياة، يكون بسبب إخلاصهم، وثمرة أفعالهم، وتضحياتهم الصامتة...

وعندما نراقب المخلوقات الأخرى من غير البشر، نجد أن كلاً قد علم صلاته وتسبيحه ... فالكل يعمل بصمت وهدوء وتعاون، كلٌ خلق لوظيفة معينة... يقدم لها جُلَّ طاقته... وكلما تدرجنا نزولاً في السلم البيولوجي للمخلوقات، تتعمق هذه الصورة الجادة في أداء الواجب، حتى إذا وصلنا إلى عالم اللامرئيات من الميكروبات، وجدنا الأداء الأمثل...!

فالوظيفة الكبرى للميكروبات على اختلاف أنواعها، هي تحليل المواد إلى مكوناتها الأساسية، وإعادتها إلى الأرض، المستودع العظيم الذي لا يمتلئ[1]، هذه الوظيفة ليست جديدة ، بل

---

[1] "أَلَمْ نَجْعَلْ الأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا*" ... سورة المرسلات(٢٥-٢٦)

قديمة قدم الحياة على هذه الأرض، فقد قدمت الميكروبات خدمة للبشرية بهدوء بالغ، بأن حللت المواد العضوية في الأزمان السابقة، وحولتها إلى طاقة على شكل بترول، أو غاز الميثان في باطن الأرض. وما زالت الخدمة مستمرة، وستبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لأنها سنة من سنن الله في الكون، حيث لا تستقيم الحياة بغيرها ...!!

هذه الخدمة العظيمة المهمة، التي جرت دون توقف على مدار الزمان والمكان، لم يعرفها الإنسان إلا في القرون المتأخرة، ولم يعرف أبطالها إلا حديثاً، فالميكروبات بأنواعها المختلفة، وأشكالها المتعددة، هي اللاعب الرئيسي، والفاعل الحقيقي في هذه العملية المهمة، وهي لا تبقي ولا تذر، تلتهم ما تجده في طريقها، وسرعان ما يظهر منها من يكيِّف نفسه للعمل، إذا ما تغيرت الظروف لسبب أو لآخر، وفي الميكروبات من التنوع، والقدرات العجيبة التي تلائم كل مادة قابلة للتحلل...!

والمعادن على اختلاف أنواعها، لم تسلم من الميكروبات، فلكل معدن ميكروب معين، بل ميكروبات، فهذا يؤكسد وذاك يختزل. ويزداد التآكل والتحلل بازدياد الرطوبة، وفعل الزمن، خاصة بغياب المواد الحافظة، والمانعة لنمو الجراثيم، التي توضع على هياكل السفن، أو الأنابيب عامة والبحرية خاصة.

وقد عرف العلماء حتى الآن أكثر من خمسين نوعاً من البكتيريا[1] والفطريات، التي تسبب تآكل المعادن المختلفة، وتحللها. ولهذه العملية على أهميتها انعكاسات سلبية كبيرة، على الاقتصاد والصحة والسلامة العامة، ولما لذلك من أثر مدمر، فإنها تتطلب جهوداً متواصلة وصيانة دائمة، لأنابيب النفط، وشبكات المياه، ووسائل الملاحة البحرية عموما.

هذه الميكروبات المنتشرة في كل مكان ، وخاصة البحار وشواطئها، تعمل منفردة، أو تتشارك مع غيرها في إحداث الصدأ، وهذا يؤدي بدوره إلى ضيق الأنابيب واهترائها وتآكلها... فتتسرب محتوياتها النفطية أو الغازية أو المائية.. ويترتب على ذلك خسارة مادية وعواقب مخلة بالسلامة العامة[2].

يذكر الدكتور (لونابيج)، أستاذ علم الجراثيم، في جامعة (بورتس ماوث) في بريطانيا، ورئيس اللجنة المنظمة للمؤتمر العالمي، الذي عقد في تموز عام ٢٠٠٣م، لبحث مشكلات التآكل المعدني الحيوي، بسبب الجراثيم[3] فيقول: "رغم كل المؤتمرات السابقة، والبحث المستفيض في موضوع التآكل، والتحات،

---

(1) Biocorrosion website. interact@port.ac.uk - updated July 2002

(2) Lewan dowski, l and A. Hamilton.Mic of Stainless Steel as model system to study metal-microbe interactions corrosion.1-14.2002

(3) "Biocorrosion covers any corrosion caused by microorganism"

وميكروباتها، إلا أننا لم نستطع حتى الآن الوصول إلى حلول منطقية، غير مؤذية للبيئة، ولا مخلة بتوازنها الحيوي الجرثومي".

أما موضوع الأشجار بأخشابها وأوراقها، التي تتساقط في الخريف بمليارات الأطنان سنوياً[1]، ثم بقايا المزروعات كالهشيم، وبقايا الحصيد، وغيرها التي تبقى على سطح الأرض بعد الانتهاء من موسمها وناتجها، فأين تذهب في كل عام..؟ وما هو مصير مليارات الأطنان منها سنوياً يا ترى..؟

لقد عرف علماء الجراثيم، ولا سيما المختصون بجراثيم التربة، آلاف الأنواع من الميكروبات الموجودة فيها، لأنها المستودع الرئيسي للجراثيم، وأهمها الفطريات، والبكتيريا والطحالب، والطفيليات، والفيروسات، وغيرها. بأعداد كبيرة جداً، يصعب حصرها، تصل إلى المليارات، وتختلف من مكان لآخر، حسب الرطوبة والمواد المكونة للتربة، ولها أدوار يكمل بعضها بعضاً في الحياة، وقد وجدت في أعماق متفاوتة في باطن الأرض، وليس على سطحها فحسب.

هذه الجراثيم تعمل على حفظ التربة، ولها أدوار حيوية جداً، لا يمكن أن تستقيم الحياة بغيرها، وتتمثل في تحليل المواد

---

[1] يوجد في العالم ٣٥ مليار دونم من الغابات.

العضوية، من جذور وبقايا نباتات، وأخشاب، وأوراق، وأجسام الحيوانات الميتة، وكذلك الجثث البشرية، وفضلات الإنسان، ومخلفاته المختلفة.

وبهذه الوظيفة المهمة، والحيوية للميكروبات، تكتمل دورات العناصر الحيوية في الطبيعة، مثل النيتروجين، والكربون، والأوكسجين، والكبريت، والفسفور، فمثلا هناك نيتروجين حر في الجو، تلتقطه بكتيريا معينة ومعروفة لتثبته بالتربة، وتحوله إلى أمونيا ونترات ومركبات النترات، لتستفيد منه البقوليات خاصة، فإذا ما نمت هذه النباتات، وأصبحت طعاماً للحيوانات، فإن موادها تتحول في أجسام الحيوانات إلى بروتينات، وغيرها، فإذا ماتت هذه الحيوانات، فإن الميكروبات في التربة تحلل أجسامها ، وإفرازاتها من بول وبراز إلى مركباتها وعناصرها الأساسية، ومن بينها نوع من البكتيريا وظيفته تخليص النيتروجين من مركباته الأساسية، ليصبح حراً في الجو، كما كان في بداية الدورة، وبهذا تتم الدورة لتبدأ من جديد.

وهذا ما يحصل للعناصر الأخرى، فلكل نوع من الميكروبات دور، سواء كان بكتيريا أو فطريات أو خمائر ، كل واحد يقوم بواجبه، بأدوار تكاملية، يتدخل الواحد في الوقت المناسب، والكيفية المناسبة، ليفعل فعله بالمادة، التي يقدر عليها، فيحولها

إلى مخرج آخر، ليأتي دور ميكروب آخر، وهكذا حتى تكتمل الدورة، لتضمن استمرارية استعمال العناصر، واستمرارية الحياة.

وأكثر المواد المتحللة، بغض النظر عن مصدرها، هي مواد كربوهيدراتية وبروتينية. فالسيليلوز[1] هو نوع معقد من الكربوهيدرات، وهو أبرز مكونات النباتات الراقية، وأكثر المركبات العضوية وفرة في الطبيعة، حيث يوجد في السيقان، والأغصان والأوراق ..الخ. ويتكون بناؤه من وحدات من الجلوكوز، مرتبطة مع بعضها لتُكوِّن سلاسل طويلة (شكل رقم ٣).

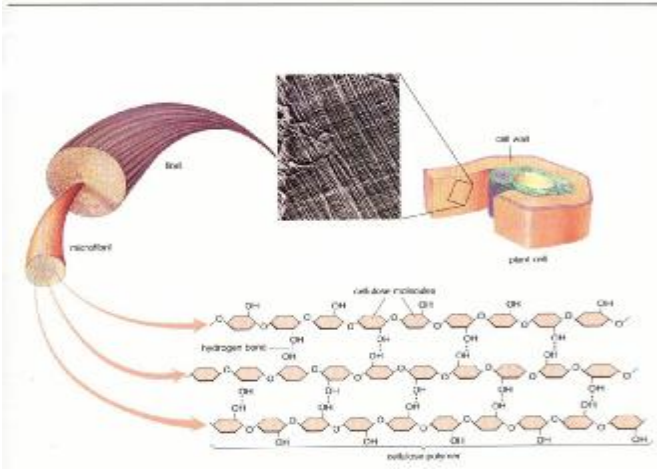

شكل رقم (٣): سلسلة سكرية في جزيء من السيليلوز

[1] جزيء السيليلوز الواحد يتكون من ٢٠٠٠-١٥٠٠٠ وحدة جلوكوز

ورغم أن النشأ يتكون من الوحدات نفسها، لكنه مرتبط بطريقة مختلفة، إلا أن تحلل النشأ أهون على الميكروبات من السيليلوز، لذلك فإن البكتيريا التي تحلل النشأ مختلفة تماماً عن تلك التي تحلل السيليلوز.

تتشارك أعداد وأنواع كثيرة من الميكروبات في تحليل السيليلوز، ففي المناطق الرطبة، تكون الفطريات هي اللاعب الرئيسي في العملية ، بينما تكون البكتيريا كذلك في المناطق شبه الجافة، علماً بأن هناك مئات الأنواع من الفطريات متخصصة بالسيليلوز، وكذلك مئات أخرى مختلفة من البكتيريا، خاصة بالسيليلوز.

هذه الميكروبات المختلفة، منها ما يعمل في الهواء الطلق، ومنها ما هو لاهوائي (يعمل بكفاية أكثر في غياب الأكسجين). ومنها ما يعمل بنشاط أكبر في درجات حرارة عالية، وأخرى في درجات متوسطة، وأسرع ما تكون عملية التحليل للنشأ والسيليلوز، عند وجودها في أوساط بيئية، تتميز عن غيرها بكثرة جراثيمها، من حيث الأعداد والأنواع[1].

---

[1] مقدمة في ميكروبيولوجيا التربة، تاليف مارتن الكسندر، ١٩٨٢.

وتساعد الأرضةُ الميكروبات في تحليل الخشب[1] وهي مخلوقات صغيرة ترى بالعين المجردة، تعيش بشكل رئيسي على مادة السيليلوز، الموجودة في الجذور، وسيقان الشجر. وهي مشهورة بتخريب الأثاث، وأخشاب البيوت (شكل رقم ٤).

شكل رقم (٤): الأرضة داخل قطعة من الخشب.

[1] منشورات وزارة الزراعة-المركز الوطني للبحوث الزراعية ونقل التكنولوجيا مديرية نقل التكنولوجيا والتدريب ، ٢٠٠٣م - الأردن.

وهي حساسة جداً للضوء، لذلك تترك الطبقة الخارجية من الخشب، لتحجز عنها الضوء، وتعيش في مستعمرات يصل عدد أفرادها إلى المليون. وأعلى درجات نشاطها في الربيع، وقد عرف العلماء حوالي ٢٢٤٥ نوعاً منها، معظمها موزع في المناطق الاستوائية، لكل مستعمرة ملك وملكة، ويمكن أن يعيشا لعشرة أعوام. ويمكن للملكة أن تضع ٣٠,٠٠٠ بيضة، ويكبر حجمها إلى ٢٠ ضعف حجم العاملة. أما الأفراد والجنود، فقد زود الله كل واحد منهم بفكين ضخمين وقويين. لقضم السيليلوز، وتحويله إلى قطع صغيرة، وبعضها يستطيع نفث سم، يشل الخصم تماماً .

الأرضة الواحدة تتعايش مع ميكروبات[1] صغيرة في بطنها (طفيليات أو فطريات). فهي تفتت السيليلوز، والميكروبات تفرز إنزيم السليوليز (Cellulase enzyme)، الذي يحول القطع إلى مكوناتها السكرية الأساسية، ثم هضمها وتحويلها إلى شكل مفيد للميكروبات، والأرضة في الوقت نفسه، بحيث أن لكل دوراً يكمل الآخر.

وعندما تريد الملكة تفقيس بيضها، تأمر بجمع بعض المواد العضوية، وجعلها على شكل محاضن، ثم تُحلل وتُخمر هذه

---

[1] مجموعة من الأبحاث المنشورة على الشبكة العالمية تحت عنوان " isopora, the white ant".

المواد العضوية، بواسطة الميكروبات، لرفع الحرارة إلى الحد المطلوب للتفقيس، فيحصل ما تريد الملكة... فسبحانك ربي ما أعظمك... وما أبدع صنعك ... وما أحكم ترتيبك ...!!

أما المواد البروتينية، خاصة تلك الموجودة في الجثث، بغض النظر عن نوعها، حيوانية كانت أم بشرية، فإنها تتحلل بفعل الميكروبات، الموجودة في الجثة نفسها، وعلى سطحها، فالحيوانات وخاصة المجترة منها، فيها أنواع معينة من الميكروبات ، ليست موجودة في غيرها، وبأعداد كبيرة جداً، لا تتوقف لحظة واحدة عن النمو والتكاثر، على حساب خلايا معيلها حالما يموت، وتتعاون معها الجراثيم الموجودة على الجلد، والمتوفرة بكثرة في التراب. ثم لا تلبث أن تساعدها مجموعات هائلة من اليرقات، التي سرعان ما تكبر، وتصبح ديداناً أكبر.

هذه الجيوش الجرارة من الميكروبات، التي سخرها الله لخدمة الإنسان ، وكثير منها طوع إرادته، أصبح بفضل ما أعطاه الله من علم، يوجه الميكروبات لخدمات جديدة[1]. فهي تنتج له

---

[1] وخير مثال ما يسمى بالبطارية البكتيرية للهاتف الجوال، التي اخترعها العالمان سوديس و ريك لافلي من جامعة مساتسوستس. حيث أن البكتيريا الموجودة في الرواسب الخالية من الهواء تحت الأرض في منطقة فرجينيا واسمها "رودوفيراكس فبريد وسينز" تقوم بتكسير السكر إلى ثاني أو كسيد الكربون-

صناعياً بتقنيات معينة، ما يعجز الجسم البشري عن صناعته، مثل استعمال بكتيريا (E. coli) لإنتاج الأنسولين، وإنتاج المادة العلاجية المهمة المسماة انترفيرون، وكذلك أصبحت بواسطة تقنيات الهندسة الوراثية، تستعمل لإنتاج مواد مفيدة، كمطاعيم ضد بعض الفيروسات، والميكروبات الممرضة.

ليس هذا فحسب، بل أصبحت وسيلة العلماء السهلة، للقضاء على بقع الزيت في المحيطات[1]، لحماية المخلوقات البحرية من خطر التلوث القاتل، وهذه تتم بعملية تسمى المعالجة الحيوية(bioremedation)، وأحسن الجراثيم التي تنجز هذه المهمة، بأقل التكاليف، وأسرع الأوقات، هي من عائلة السيدوموناس (pseudomonas)، التي تستطيع أن تأكل وتتغذى على البترول، وكذلك لديها المقدرة على العيش وسط بعض المبيدات، والمعقمات الجرثومية، وتستطيع أن تحول الزئبق والسموم بالتعاون مع بعض الجراثيم الأخرى، إلى مواد غير سامة، بعد أن تتغذى عليها، وتحولها إلى مركبات أخرى.

- وشحنات كهربائية " - مجلة (Nature Biotechnology) العلمية المتخصصة، أيلول عام ٢٠٠٣م.

[1] مصيبة Exxon Valdez التي حصلت عام ١٩٨٩ م في أحد شواطئ الاسكا حيث رشت كميات كبيرة من جرثومة السيدموناس فوق بقعة الزيت، فسرعان ما آكلتها وحولتها إلى مواد غير ضارة.

هناك آفات زراعية انتشرت في العالم، أحدثت أضراراً كبيرة في الزراعة والإنتاج، وبعد الأبحاث الطويلة لم يجد العلماء وسيلة أفضل من استعمال الميكروبات، للقضاء على هذه الآفات، وقد نجحت البكتيريا بحل هذه المشكلة، واستفاد المزارعون من ذلك، وأكثر جرثومة استعملت لهذا الغرض، ولا تزال تستعمل، هي من عائلة (Bacillus).

وقد واجهت العلماء مشكلة، تتمثل بعدم تحلل بعض أنواع البلاستيك والبلسترين، وانتشارها على سطح الأرض الزراعية. مما كان يؤذي الحيوانات، إذا ابتلعتها مع الأعشاب، أو يقلل كفاءة الأرض الإنتاجية زراعياً، وبعد سلسلة طويلة من الأبحاث امتدت لعشرات السنين، توصل العلماء في اليابان إلى تكثير بكتيريا مهندسة جينياً، قادرة على تحليل هذه المواد والتخلص منها.

أما دور هذه الميكروبات، في خدمة الإنسان من خلال صناعة الحليب ومشتقاته، من ألبان وأجبان، ثم المنظفات والملابس والأشربة ، وصناعة المضادات الحيوية، والأسمدة، والتخلص من النفايات، فحدث عنها ولا حرج، فدورها كبير جداً، وفائدة الإنسان من ذلك عظيمة.

وفوق كل ما سبق، فإن هذه الجراثيم جنود من جنود الله العديدة، يسلطها على من يشاء من البشر، لحكمة هو يعلمها، فقد

سلط الله جرثومة الطاعون على بني إسرائيل، وعلى أقوام آخرين عقوبة لهم[1]، كما سلط غيرها من الجراثيم الأخرى، التي تسبب سلسلة الأمراض الجنسية نتيجة للزنا والشذوذ.

ومن يقرأ كتاب الدكتور زنسر[2] "الفئران والقمل والتاريخ" يجد فيه عجباً... فكثير من القادة العظام، دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه، وحصلوا على أكاليل النصر، بدعوى أنهم ربحوا معارك عالمية خلّدت أسماءهم، والواقع غير ذلك، فلم يكن الأبطال هم الذين حسموا هذه المعارك، وإنما كانت الجراثيم هي السبب، إذ فتكت بالطرف الآخر، وأوردته موارد الهلاك، كجرثومة الدزنتاريا، التي فتكت بجيش رومل في معركة العلمين. وجرثومة التيفوس، التي فتكت بجيش نابليون في بلاد الصرب.

---

(1) يقول الرسول عليه السلام : " أن هذا الوجع أو السقم(الطاعون) رجز عذبت به أمم قبلكم ثم بقي بعد بالأرض فيذهب المرة ويأتي الأخرى..." (صحيح البخاري).

(2) Rats, Lice and history (1935) by Hans Zinsser

دابة الأرض ... تأكل منسأته!!

كان لا بد من الإشارة إلى هذه المقدمة، ورغم أنها من البدهيات العلمية الموثقة، والمنشورة في كتب علم الجراثيم، وخاصة ما يتعلق بجراثيم التربة والصناعة والتحليل والتخمر[1] وغيرها، والتي يراها أصحاب الاختصاص رأي العين، من خلال المجاهر المتطورة، والتكنولوجيا المتقدمة، التي أدت إلى معرفة متقدمة بأنواع الميكروبات المختلفة، من بكتيريا، وفطريات، وطفيليات وغيرها، من حيث الأسماء والأدوار التي تقوم بها في الطبيعة، خاصة في ما يتعلق بتحليل الخشب، ومادته الرئيسية السيلولوز، وباقي مكونات الأغصان والأوراق والنباتات والفضلات والجثث الحيوانية المختلفة.

هذه الحقائق وغيرها، تُملي علينا إعادة قراءة آيات القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ومن ثم الاطلاع على ما ذهب إليه أهل التفسير، الذين استفادوا مما تجمع لهم في عصرهم من معارف وعلوم، سخروها للاستدلال بها على ما ذهبوا

---

[1] يوجد في علم الميكروبات فروع مختلفة منها علم جراثيم التربة (soil microbiology) وعلم جراثيم الصناعة (industrial microbiology) وغيرها الكثير.

إليه، وإعادة قراءتها لنلمح بعض المعاني الجديدة التي يمكن أن تضاف إلى ما وصفه المفسرون، مستفيدين مما فتح الله على الناس في هذا الزمن، من علوم، ومعلومات ثابتة، وإبداعات عظيمة، وتخصصات في منتهى الدقة "... وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء ..."[1].

من هذا المنطلق، ومن واقع الاختصاص في علم الميكروبات الطبية، كنت أتأمل ملياً الآيات القرآنية، التي وردت فيها كلمة "دابة"، التي عرفها المفسرون في زمانهم، في ضوء ما تجمع لهم من معارف، بأنها تغطي المخلوقات المرئية بالعين المجردة، من النملة الصغيرة إلى الفيل الكبير، وهذا التعريف صحيح، لكن الجديد الذي يلح عليَّ أن أكتب فيه، وأبينه للناس بحكم اختصاصي، هو ظهور أمور جديدة، جاءت ثماراً طبيعية للتقنيات الجديدة، ومعطيات ثابتة للعلم الحديث، ومعارف أكيدة، كالجراثيم التي أصبحنا نراها، ونتعامل معها يومياً، لتطويعها لخدمة الإنسان، أو لتجنيبه أذاها.

هذه المخلوقات المجهرية، التي عرفنا تركيبها وطبيعة حياتها، ودورها في الوجود، وانبثاثها المذهل في الأرض، وعلاقتها

---

[1] آية ٢٥٥ من سورة البقرة.

بالإنسان، مباشرة من خلال إحداث المرض، أو تقديم الخدمة له، أو بطريقة غير مباشرة من خلال ما يقتات عليه الإنسان من نبات وحيوان. هذه المخلوقات هي من دواب الأرض، التي تشملها معاني الآيات الكثيرة، التي وردت في كتاب الله العظيم.

هذه المخلوقات المنبثة في كل مكان، لو قُدر للإنسان العادي أن يرى الواحدة منها مكبرة مليون مرة، لرآها حية تسعى، خاصة إذا كانت من النوع المتحرك. إذن العلة هي في صغر حجمها، ومحدودية الإبصار عند البشر، علماً أن محدودية الإبصار عند البشر، هي من نعم الله العظيمة التي أنعم بها على الإنسان، لأنه لو قدر له أن يرى ما على جلده من ميكروبات، لمات هماً وغماً، فسبحان الذي خلق كل شي فقدره تقديراً (شكل رقم ٥).

شكل رقم (٥):
بكتيريا لولبية مكبرة خمساً وعشرين ألف مرة.

فلو قرأنا قول الله تعالى، عن سليمان – عليه السلام -: " فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ"[1] والمنسأة[2] هي العصا التي كان متكئاً عليها، وهي في الغالب الأعم من الخشب، ومادة الخشب الرئيسية كما هو معروف اليوم هي مادة السيليلوز.

وكما سبق ذكره، فإن أعداداً كبيرة من الميكروبات، التي لا ترى بالعين المجردة هي المسؤول الأول عن تآكل السليولوز وتحليله، بالتعاون مع الأرضة.

فالميكروبات بأنواعها تستطيع منفردة أو مجتمعة أن تحلل السليولوز، والنشأ وما شابه ذلك، إلى وحداته الأساسية، ثم تحول هذه الوحدات إلى ثاني أكسيد الكربون، وبعض المخرجات الأخرى المختلفة، حسب نوع الميكروب، وظروف التحليل، وأحياناً تتعاون هذه الميكروبات مع الأرضة لإتمام ذلك.

---

(1) الآية ١٤ من سورة سبأ.

(2) المنسأة: أصلها من نسأتُ الغنمَ أي زجرتها وسقتها . فسُميت العصا منسأة لأنه يزجر بها الشيء ويُساق.. والمنسأة هي العصا بلغة أهل الحبشة واليمن.

لكن الحقيقة الثابتة أن بعض أنواع الأرضة لا تستطيع أن تهضم مادة الخشب كغذاء تقتات منه، مع أنها تستطيع قضمها بفكين قويين، لكن لا بد من وجود ميكروبات أصغر منها هي التي تكمل المشوار، لاستخراج طاقة من الخشب لها وللأرضة، للاستمرار بالقضم وبالعمل ...

وهكذا ولأن المفسرين في السابق، لم تتيسر لهم علوم الجراثيم كما هي اليوم، فقد ذكروا ما رأوا وعلموا، وهو صحيح، لأن الأرضة مثل بعض النمل الصغير حجماً، يُرى بالعين المجردة. فعلم الميكروبات الحديث، يضيف لما ذكروا، بأن ما ورد في الآية الكريمة، عن دابة الأرض يشمل غير المرئي، مثل الميكروبات التي ثبت أنها تحلل السيليلوز وهي مادة الخشب، لتتغذى عليها وتنتج منها موادً أخرى.

والأمر العلمي الآخر، أن مكونات خلية الميكروب، هي من مكونات الخلية الحيوانية نفسها (خلايا الدواب الكبيرة)، من حيث نسبة الماء، والعناصر الموجودة فيها، مثل الهيدروجين والأوكسجين والكربون ... الخ وينطبق عليها ظاهر معنى قوله تعالى: " وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "[1].

فالميكروبات بالإضافة إلى كونها مخلوقة من ماء وهذا معروف علمياً، فإنها تتحرك أيضاً، منها بلا أسواط حقيقية كالأميبيا، ومنها ما له سوط واحد، أو أكثر، تتحرك بواسطتها، وتسبح بملكوت ربها تبحث عن رزقها، فهي تتصرف رغم أنها وحيدة الخلية، وصغيرة جداً، تتصرف وكأنها دابة متعددة الخلايا، كالتي نراها بالعين المجردة (شكل رقم ٦).

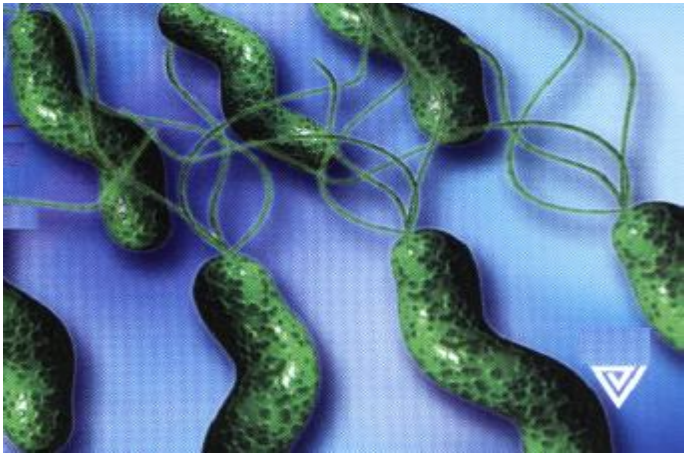

شكل رقم (٦): بكتيريا مكبرة حوالي عشرة آلاف مرة، وتظهر فيها الأسواط.

---

[1] الآية ٤٥ من سورة النور.

والأمر الأهم هو معنى دابة في اللغة، فالمنجد ولسان العرب يفيدان بأن كلمة دابة هي مؤنث داب، وجمعها دواب، وتقع على المذكر والمؤنث، ومصغرها دويبة، وهي كل ما يدب الهوينا - الحركة ببطء – على الأرض، ليشمل الصغير والكبير، المميز وغير المميز وما يعقل وما لا يعقل . والدابة اسم لما دب من المخلوقات مميزة وغير مميزة .

وعندما نستعرض بعض الآيات الكريمة التي تُذكر فيها كلمة دابة، نجد كلمة أخرى تكاد تكون ملازمة لها، وهي بث أو يبث يقول تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ"[1] ويقول تبارك وتعالى: " خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ"[2] وقوله: "وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ"[3] وكذلك قوله عز وجل: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ

---

(1) الآية ٢٩ من سورة الشورى.
(2) الآية ١٠ من سورة لقمان.
(3) الآية ٤ من سورة الجاثية.

فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"[1] ومعنى بث لغة كما ورد في لسان العرب: نشر وكثَّر وفرَّق، فإذا انطبقت معاني الانبثاث على الدواب المرئية، من جراد ونمل ونحل وبهائم، وحيوانات أخرى، وبشر، فإنها تنطبق على غير المرئية أكثر، كالميكروبات، لأنها أسرع تكاثراً وانتشاراً، فهي تتكاثر بسرعة عجيبة بالقياس إلى المخلوقات الأخرى. وهي محمولة على الإنسان والحيوانات والنباتات، ومبثوثة في الهواء والماء، وهي منبثة في التربة بأعداد هائلة، لذلك هي أكثر عدداً وتفرقاً وانتشاراً في الكون من غيرها.

كل ما سبق من معانٍ علمية ولغوية، تفيد بأن الميكروبات على اختلاف أنواعها وأشكالها، ورغم أنها تتحرك، وتعمل بالخفاء، دون أن يبصرها البشر، إلا أنها من دواب الأرض. وكلمة دابة كغيرها مرنة، تتسع لكل جديد شريطة أن يرقى إلى درجة الحقيقة.

وعلى ما سبق، نستطيع أن نؤكد بأن الذي أكل منسأة سيدنا سليمان، هي الميكروبات بالتعاون مع الأرضة؛ لأنهما يعيشان عيشة تعاونية، فيها منفعة متبادلة، من حيث أن بعض الميكروبات

---

[1] الآية ١٦٤ من سورة البقرة.

يعيش في بطن الأرضة، يساعدها في هضم المادة الخشبية، وتحويلها إلى طاقة غذائية لهما.

وهذا ينطبق أيضاً على صحيفة المقاطعة، التي أكلتها دابة الأرض، ومادة هذه الصحيفة التي علقت في الكعبة إما أن تكون ورقاً، والورق يصنع من الخشب، ومادته السليولوز، وهي مادة منسأة سليمان عليه السلام نفسها، أو جلداً، والجلد معروف أنه يتكون من خلايا قرنية، مملوءة بمادة بروتينية، اسمها كيراتين، وهي غذاء جيد للجراثيم، بل بعض الفطريات لا يعيش إلا عليها!

وقصة الصحيفة الظالمة[1] أن قريشاً لما تكاتبت على بني هاشم، حين أبوا أن يدفعوا إليهم رسول الله- صلى الله عليه وسلم -

---

[1] هكذا وردت في تهذيب سيرة ابن هشام-عبد السلام هارون-مؤسسة الرسالة دار البحوث العلمية- الكويت.
علماً أنها وردت في صفة الصفوة" للإمام ابن الجوزي على نحو إعجازي آخر يتمثل بأن الله تبارك وتعالى أطلع نبيه على أمر صحيفتهم، بأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور أو ظلم، وبقي فيها ما كان من ذكر الله، فذكر ذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأبي طالب. فقال أبو طالب: أحق ما تخبرني به يا ابن أخي؟ قال: نعم والله. فذكر أبو طالب ذلك لإخوته وقال: "والله ما كذبتني قط" ... فخرجوا حتى دخلوا المسجد. فقال أبو طالب: إننا قد جئنا لأمر فأجيبوا فيه قالوا: مرحباً بكم وأهلاً. قال : أن ابن أخي قد أخبرني أن الله قد سلط على صحيفتكم التي كتبتم الأرضة، فلحست ما كان فيها من جور أو ظلم وقطيعة رحم، وبقي فيها كل ما كان من ذكر الله. فإن كان ابن أخي صادقا نزعتم سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعته إليكم، فقتلتموه أو استحييتموه، إن شئتم. قالوا: أنصفتنا، فأرسلوا إلى الصحيفة فلما فتحوها إذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فسُقط في أيدي القوم، ثم

أن لا يُناكحوهم ولا يُبايعوهم ولا يُخالطوهم في شيء ولا يكلموهم، فمكثوا ثلاث سنين في شعبهم محصورين... ثم اتفق نفرٌ من أهل المروءة، أن ينقضوا هذه الصحيفة لظلمها. وكان أول الفاعلين زهير بن أبي أمية، حيث أقبل على الناس، عند البيت، وقال : يا أهل مكة، أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى؟! لا يُباع لهم، ولا يُبتاع منهم، والله لا اقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة . قال أبو جهل- وكان في ناحية من المسجد - : كذبت والله لا تُشق!

فقام زمعة بن الأسود، وأبو البختري، والمطعم بن عدي، وهشام بن عمرو، وقالوا كلاماً يوافق ما قاله زهير بن أبي أمية، وينكرون على أبى جهل ما قال، فقال أبو جهل: "هذا أمر دُبر بليل، تُشوور فيه بغير هذا المكان". فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا "باسمك اللهم"...!!

وبناءً على ما سبق، فإن الميكروبات تقوم منذ بداية الخليقة، وإلى يومنا هذا بعملٍ عظيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. لأنها مخلوقاتٌ غير مرئية، رغم انتشارها المذهل تقوم بهذا العمل

نُكسوا على رؤوسهم. فقال أبو طالب: هل تبين لكم من أولى بالظلم والقطيعة؟ فلم يراجعه أحد منهم ثم انصرفوا.
صفة الصفوة للإمام أبى فرج بن الجوزي تحقيق الشحات المجلد الأول دار المنار.

بهدوءٍ وصمتٍ ليلَ نهار، طاعةً لخالقها، وخدمة للإنسان الذي كرمه ربه، دون سائر خلقه، بأن سخر له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، وما عليهما، فتحلل المواد، والأجسام، وتزيل السموم، وتصنع للإنسان طعاماً وعلاجا وشراباً، وتدير عجلة دورات العناصر الحيوية في الكون، لمصلحة الإنسان والحيوان والنبات، فهي نعمة من نعم الله، التي لا يدرك أهميتها إلا العارفون والعالمون.

فإذا علمنا أن مجموع مخلفات البيوت والمتاجر والمصانع اليومية وفضلاتها في نيويورك وحدها يساوي أحد عشر ألف طن، وأن الولايات المتحدة الأمريكية تجمع سنوياً ما يساوي عشرة مليارات طن، فهذا يعني أن مئات المليارات من الأطنان تجمع سنوياً في العالم، ولكنها سرعان ما تختفي فلا تتراكم... بفضل الذي أوجد لنا هذه المخلوقات العظيمة، "وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ" [1].

فلنا أن نتصور لو أن هذه المليارات من الأطنان تراكمت على مدى قرن من الزمان...ّ! فما الذي سيحدث في الأرض يا ترى...؟! وهل سيبقى وجه البسيطة صالحاً للعيش...؟! لا أظن ذلك.

---

[1] الآية ٤ من سورة الجاثية.

والله تبارك وتعالى قد منَّ علينا، أن خلق هذه الميكروبات؛ لتنظيف الأرض أولاً بأول، دون أن تزاحم البشر على مكان أو طعام ... تقوم بعمل عظيم بلا تكاليف... ولنا أن نتصور لو أن الله قد خلق هذه المليارات من الميكروبات بحجم كبير... لسدت الطرق، وامتلأت الأرض بالجراثيم، وفسدت الحياة، ولكنه قد خلق كل شيء بقدر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون...! وهذا يتفق تماماً مع سنة الله في توازن الخلق كله، فضعف الميكروبات الشديد يعوض بكثرتها الهائلة.

ضعاف الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلاةٌ نزورُ

ولو أراد الله أن يُعذب الإنسان فلديه من الوسائل مالا يحصى... ولكنه يُمهل ولا يُهمل... ولو رفع عنا هذه الخدمة العظيمة فقط... وأوقف عمل هذا الجندي المجهول... لكان نوعاً من العذاب لا نألفه... وشديداً لا نطيقه... والله تبارك وتعالى يقول في محكم كتابه: "وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ"[1].

---

[1] الآية ٦١ من سورة النحل.

المعاهدة الصامتة

لقد حفظ الله الجنين في قرار مكين، في رحم أمه، بعيداً عن الجراثيم، وأحاطه بما يحميه بإذن الله من السوء[1]. ولذلك عندما يولد يكون معقماً من الناحية الجرثومية، ولا يلبث كذلك إلا ساعات تتراوح بين ٤-١٢ ساعة، حيث تدخل الجراثيم زوره وحلقه مع الهواء، أثناء التنفس، وتحط على جلده مع ذرات الهباء المتطايرة في الجو، وتدخل إلى أمعائه، مع حليب أمه، أثناء الرضاعة، والتماس مع جلدها[2].

هذه الجراثيم على اختلاف أنواعها، لا تبقى ساكنة بل تنمو وتتكاثر، وتزداد عدداً وتنوعاً، حتى تصل إلى أرقام مخيفة، فمثلاً على الجلد يتراوح عددها ما بين ٢٠-١٠٠ مليار جرثومة، أما في الأمعاء فالعدد أكثر بكثير، ولا يعرفه حقيقة إلا الذي خلقها، وقد قرر العلماء أن الغرام الواحد من براز الإنسان يحوي أكثر من مائة مليار

---

(1) رحم الأم معقم جرثومياً، فلا تصل إليه الميكروبات بإذن الله، لينمو الجنين بعيدا عما يؤذيه. والله تعالى يقول: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ(١٢)ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(١٣)ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤)" سورة المؤمنون.

(2) Medical Microbiology by Jawetz, Melnik and Adelberg, 20th edition 1995.

جرثومة، وتتضاعف باستمرار، وغالبيتها العظمى (٩٦-٩٩%) من النوع اللاهوائي[1]، الذي ينشط بغياب الأوكسجين (شكل رقم ٧).

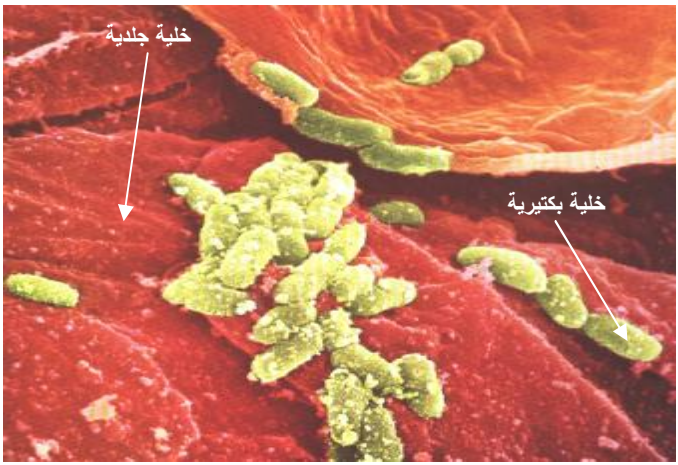

شكل رقم (٧): قطعة من الجلد (اللون الأحمر) مكبرة حوالي خمسة آلاف مرة، وتظهر عليها بعض الميكروبات(اللون الأخضر).

فما الذي يمنع هذه الجراثيم من أن تأكل جسد صاحبها ..؟ ما دامت تنمو وتتكاثر وهي داخله..؟ وعلى ماذا تتغذى هذه الجيوش

[1] من نوع Bacteriodes.

الجرارة إذن..؟ بل ما مبرر وجودها بهذه الأعداد الهائلة في الأمعاء ..؟! خاصة إذا علمنا أنها تحاول بكل ما تستطيع أن تصل إلى الدم، حيث الغذاء المفضل لديها..؟ ومن خلاله إلى جميع أجزاء الجسم..!! ولكنها لا تستطيع .. فلماذا ومن الذي يمنعها ؟

الله تبارك وتعالى الذي خلق هذه الميكروبات وبثها، قد خلق في جسم الإنسان جهازاً خاصاً، للدفاع عنه، وحمايته من الجراثيم وغيرها. وبث قواته في كل جزء من جسمه..! "لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ..."[1] هذا الجهاز ينتظم في سلكه مليارات الأفراد من القوات، ولديه وسائل اتصال سلكي ولا سلكي، ويعمل ليل نهار، بطرق تكنولوجية دقيقة، تعجز عنها أعظم الجيوش البشرية.

ولولا فضل الله، ثم وجود القوى المناعية هذه على اختلاف أنواعها، لما صمد جسم الإنسان أمام هذا الكم الهائل، والأعداد الغفيرة، من الجراثيم، التي تعيش في أمعائه، وعلى جلده، ومجرى التنفس عنده، وتحيط به من كل جانب.

وقد خلق الله للإنسان في هذا الجهاز خطوطاً دفاعية، تعمل بنظام تكاملي، وبدقة متناهية، لا تتوقف ليلاً ولا نهاراً، فهي دائماً

---

[1] الآية ١١ من سورة الرعد.

متيقظة، تعمل دون كلل أو ملل، لا تعرف إلا الإخلاص، والإتقان، والتفاني في خدمة صاحبها[1].

فالخط الدفاعي الأول، يتمثل بشكل رئيسي، في الجلد والأغشية المخاطية، وبعض المواد الكيماوية، الموجودة على الجلد، والدمع، والمواد المخاطية، والشعيرات الطاردة ... فإذا استطاعت بعض الجراثيم، التسلل إلى الداخل، فإن جيشاً من جنود خط الدفاع الثاني وخلاياه لها بالمرصاد. هذه الخلايا تصنع في نخاع العظم، وترسل إلى مراكز التدريب والإنضاج والتخصص، ثم ترسل إلى مواقع العمل في الجلد أو الأمعاء أو الرئتين.. وكل نوع له قدرات ومهارات، اكتسبها للقبض على الجراثيم المتسللة، وبلعها وقتلها، واستدعاء قوات إضافية عند الحاجة ... !! (شكل رقم ٨).

هذه الخلايا في الخط الثاني، منتشرة في كل مكان من جسم الإنسان، فكل ملم^3 من دم الإنسان فيه حوالي عشرة آلاف خلية. وكل خلية عبارة عن جندي مسلح جاهز للعمل. وهذا الرقم يمكن أن يصبح عشرين ضعفاً، خلال ساعة واحدة، إذا ما داهمت الجراثيم

---

[1] إلا إذا وقع في الحرام (الزنا والشذوذ والمخدرات) عندها يتخلى عن صاحبه فلا يحميه وربما يصاب بالإيدز أو الأمراض الجنسية الأخرى.

الغازية الجسم، واستباحت حرمته، فتدوي صفارات الإنذار في الحال، ويحصل النفير العام، في كل أنحاء الجسم[1].

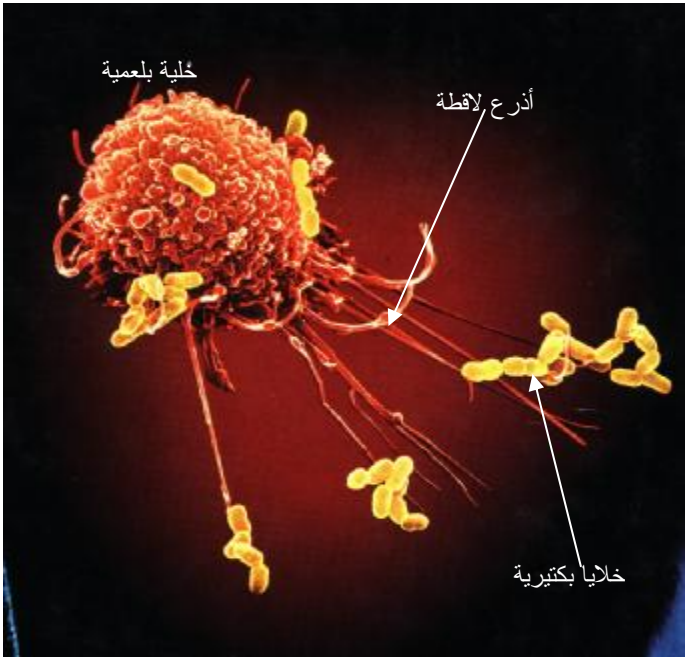

الشكل رقم (٨): خلية بلعمية تلتقط خلايا بكتيرية وتبتلعها

[1] وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: "مثل المؤمنين في تَوادّهم وتراحُمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر" متفق عليه.

وأما الخط الثالث فهو اكثر دقة وتعقيداً، ويعمل في الوقت المناسب، بطريقة بديعة منسقة ودقيقة. وهو عبارة عن خلايا لمفية تسمى الخلايا البائية، وتصل إلى مائة مليون نوع، كل نوع قادر على إطلاق قذائف متخصصة، ضد الجراثيم الغازية. وتستطيع الخلية الواحدة أن تُطلق آلاف القذائف في الثانية، وهكذا تطلق الخلايا الليمفاوية مليارات المليارات من القذائف في الدم، تسمى الأجسام المضادة، تتولى مطاردة الميكروبات الغازية والقضاء عليها.

هذه الخطوط الدفاعية الثلاثة بما يساندها من وسائل كيماوية، واتصالات لا سلكية، تتعاون بطريقة تكاملية مذهلة، فكثرة أفرادها لا يعرقل عملها، بل يزيدها قوة ومنعة، ولديها من وسائل الاتصال الحديثة، والتنسيق العجيب، ومن القدرة على معرفة العدو من الصديق، إلى الحد الذي ما زال يحير الأطباء... "صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ"[1].

هذه الجيوش الجرارة، من قوات جهاز المناعة، التي تعمل ليل نهار، لتحمى أجسامنا، يقابلها جيوش موازية من الميكروبات، التي تنتهز أي فرصة، يضعف بها جهاز المناعة، أو يغفل عن

---

[1] الآية ٨٨ من سورة النمل.

صاحبه، فتهجم عليه، وتؤذيه ولو قليلاً، ثم لا تلبث أن تندحر أمام قوات جهاز المناعة المختلفة، التي يتمتع بها الجسم.

وهكذا تستمر المناوشات الخفيفة والمتقطعة، ولكن بدون أصوات، وبصمت رهيب بين كر وفر، ليلاً ونهاراً دون أن تحس بذلك، رغم حصوله مئات المرات في جسمك يوميا. ودون أن تحسم المعركة من طرف ما، أو ينقض طرف منها على الآخر في معركة فاصلة... فلا يحدث هذا، ما دام الإنسان حياً، وفي وضعه الطبيعي من الصحة.

فالأمر أشبه ما يكون بمعاهدة صامته، غير مكتوبة، تحترمها كل الأطراف، فلا جهاز المناعة يقضي على عدوه بالضربة القاضية، ولا تهجم الجراثيم الغازية دفعة واحدة، لتقتل جهاز المناعة، ما دام الإنسان حياً... ولكن الأمر يتغير كلياً عندما يموت الإنسان..!!

فما الذي يحصل للإنسان عند الموت؟ وما الذي يتغير ...؟؟ كان قبل لحظة يتحرك، ويتكلم، فأصبح جثة هامدة لا حراك فيها .. كان يأكل ويشرب، بل يلعب ويبتسم، فأصبح جسداً هامداً كقطعة خشب..! يا إلهي ما الذي حصل..؟ ماذا فقد جسمه في طرفة عين

حتى أصبح هكذا.. ؟! سبحان من قهر عباده بالموت ... !! وصدق الله العظيم إذ يقول: "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ"[1].

تناديه..!! تحاول إيقاظه بشتى الوسائل ... فلا مجيب..! لا فائدة لقد مات... مات... ماذا يعني ذلك...؟ خرجت روحه! ... ما هي الروح؟... لم نغادره لحظة، لم نر شيئاً يخرج...!!

نحن في عصر العلم، الذي قرَّب البعيد، وجعل العالم قرية صغيرة، واختصر الزمان، وجعل ما على سطح الأرض، وكثيراً من الكواكب أمام ناظريك، في لمح البصر، حيثما كنت، رغم هذا كله، ورغم تكرار حادثة الموت، ملايين بل مليارات المرات، إلا أن الإنسان سيبقى حائراً أمام معجزة الروح.. "وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوح قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا"[2] ... هذه المعجزة التي ليست في مجال مدارك الإنسان، ولن تكون يوماً بحدود إمكاناته البشرية، مهما أوتي من علم ومعرفة وتكنولوجيا... وهكذا يتجلى العجز البشري الدائم، خاصة عندما تقرأ قول الله تبارك وتعالى " فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ

---

(1) الآية ٥٧ من سورة العنكبوت.
(2) الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[1].

فما أن تخرج الروح من الجسد، حتى تهجم عليه جيوش هائلة من الميكروبات[2]، التي كانت تعيش قبل ذلك في فمه، وانفه، ومعدته وأمعائه، وعلى جلده، وبعد أيام تطول أو تقصر، يدب فيه التعفن والتحلل، فيتحول إلى هيكل عظمي، ثم يؤول هذا إلى زوال. ولولا هذه العملية الديناميكية لتحولت الأرض عبر السنين إلى كومة من الجثث الحيوانية والبشرية والنفايات والمخلفات ... ولكن شيئاً من ذلك لم ولن يحدث أبداً. إذ قضت سنة الله في هذا الكون، أن يعود كل شيء إلى أصوله ... غازات ... عناصر ... تراب، فكما بدأ الإنسان يعود، تبعاً للحقيقة الخالدة التي قررها الله – تبارك وتعالى – في قرآنه الكريم، من فوق سبع سماوات، بقوله: "كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ

---

[1] الآيات ٨٣-٨٧ من سورة الواقعة.

[2] اعتقد الفراعنة بعودة الروح عند البعث إلى جسدها، لذلك عمدوا إلى تحنيط جثث الموتى، ليحموها من التحلل. فكان أول عمل يقومون به هو إزالة الأعضاء الداخلية لحماية الجثة من التحلل، (أي إزالة المعدة والأمعاء رغم عدم معرفتهم بالجراثيم آنذاك) تم معالجة الجثة بالأملاح والأصماغ وزيت الأرز والعسل والقار لحماية الجثة من الجراثيم ..." ذكر ذلك الباحثان زينارد والدكتور ستيفن في جامعة بريستول في مجلة scientific nature العلمية عام ٢٠٠٣م.

خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ"[1] وكما ذكر في محكم كتابه: "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى"[2].

ترى ما الذي حدث بعد خروج الروح من الجسد..؟ ببساطة شديدة لقد تهدمت بالموت خطوط الدفاع الحية، التي تقف مع الجسم في حياته ضد غزو الميكروبات، إذ لولا هذه الخطوط العظيمة لفتكت به الجراثيم من قبل، ولما قامت له قائمة. فهذه الخطوط الدفاعية هي بمثابة الحفظة والحرس المتيقظ، يحميه من بلاء حقيقي يتربص به في كل آن وحين. ولكن بالموت ينهدم طرف كامل من أطراف المعاهدة، فلا يبقى ما يقف أمام الطرف الثاني، فينطلق ويفتك بالجسم ويعيث فيه فساداً، ولهذا عرَّف العلماء الموت، بأنه التوقف الكامل لعمل جهاز المناعة وقواته[3].

---

(1) الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء.

(2) الآية ٥٥ من سورة طه.

(3) life death and the immune system, scientific American a special issue 1994 New York.

القبر ... هل هو بيت الدود؟

ما أن تغادر الروحُ الجسدَ، حتى تتهدم كل وسائل الدفاع، التابعة لجهاز المناعة فيه، فتهب الميكروبات بجميع أنواعها، وأشكالها، وبغض النظر عن مكان وجودها في الجسم لتلتهمه، فهي مفطورة على التكاثر اللانهائي، ما دام هناك طعام متوفر، وظروف مناسبة.

فما الذي خرج من الجسد فسبب موته ...؟! لا نعرف منه إلا الاسم ... الروح ..!! نعم الروح ..!! فهي ليست شيئاً مادياً يُرى أو يُقاس... وباختصار فهي ليست في مدار مدارك الإنسان واستيعابه مهما أوتي من قوة ومعرفة وتكنولوجيا[1]

---

[1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "... إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ قَالَ فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ قَالَ فَيَصْعَدُونَ بِهَا ... ... وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا- - -

وأما كيف خرجت الروح من كل جزئية من أجزاء جسم الإنسان..! من مليارات الخلايا المختلفة... هذه الخلايا المتحركة أوالثابتة في جسم الإنسان... فلا أحد يعرف، ومن يتصور مليارات الخلايا التابعة لجهاز المناعة، المتجولة في الشبكة اللمفاوية والأنسجة والدم، ثم مليارات الكرات الدموية، التي تجري دونما توقف في الشرايين والأوردة، مُشكِّلة أكبرَ ازدحام مروري، يمكن أن يخطر ببال الإنسان، ولكن دونما حوادث؛ يزداد حيرة وانبهاراً ...!! وذهولاً ... !!

من يتصور ذلك ويعرفه جيداً، يعجب أشد العجب، من هذا التوقف بشكل كامل عن الحركة، وكأنها سمعت إيعازاً يأمرها بالتوقف الفوري، فاستجابت لأمر ربها، وكأنها خلية واحدة.

- وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمْ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَغَضَبٍ قَالَ فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا ..." (رواه الإمام أحمد)

وفي الطرف الآخر... مليارات الجراثيم المتربصة، وخاصة في الأمعاء " بذرة فناء صاحبها"[1]، فمن الذي أعلمها بخروج الروح من الجسد..؟ رغم أنها لا ترى ولا تسمع ولا تدرك. وليس لديها أجهزة اتصال كما لدى البشر؟!! ثم كيف أحست بانهيار جيش المناعة الجرار بعد خروج الروح ..؟؟ لتنقلب فوراً من صديق إلى آكل للجسم بنهم منقطع النظير..!!

هل لديها من الاستشعارات الذاتية المتطورة أكثر من الإنسان حتى تدرك خروج الروح قبله..؟!! لا أظن ذلك ولكنها وظيفة بأمر إلهي، ناطها الله بالميكروبات، تنفذها بالوقت المناسب، مصداقاً لقوله – تبارك وتعالى – : " الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى..."[2] فهو الذي هداها، وأشعرها بخروج، الروح بكيفية لا نعلمها، لتنفذ واجبها، طاعةً لخالقها، وقياماً بواجبها.

وقد استطاع الطب الشرعي معرفة خطوات تحلل الجثث في القبور، منذ خروج الروح من الجسد، وحتى يتحول إلى غازات وسوائل وأملاح، "... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ "[3] ويتعاون في ذلك الجراثيم، خاصة اللاهوائية، الموجودة في أمعاء الإنسان،

---

(1) كان الفراعنة عند التحنيط يُزيلون الأمعاء من الجثة المراد تحنيطها ويدهنون الجلد بمواد قاتلة للجراثيم.

(2) الآية ٥٠ من سورة طه.

(3) الآية ٢٩ من سورة الأعراف.

والأنزيمات التي تتحرر من الخلايا بعد الوفاة، واليرقات الدودية، التي تتكاثر بشكل سريع، وتلتهم خلايا الجثة... !!

ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حين قال: "لو رأيتني بعد ثلاث في قبري"[1] وكأنه يصف ما يحصل للجثة في القبر في الأيام الأولى للدفن من تغيِّرٍ وتبدلٍ وتآكلٍ وهجوم للديدان !!

والدم هو أول الأنسجة تأثراً، حيث تنحل الكريات الحمراء، ويخرج منها الهيموجلوبين، فيُلوِّن جدران الأوعية الدموية، وينفذ من خلالها، ليُلوِّن الأنسجة حول الأوعية، باللون الأحمر، وأحياناً ونتيجة لتفاعلات أخرى، يظهر اللون البني، أو الأخضر القاتم[2].

وأول العلامات التي تظهر نتيجة التعفن، عبارة عن بقع خضراء داكنة، تحت السرة، أو مقابل الأعور(الزائدة الدودية). ثم تكبر وتتسع حتى تعم جدار البطن كله. و في الوقت نفسه تظهر

---

[1] يقول محمد بن كعب القرضي: دخلت على عمر بن عبد العزيز لما استخلف، وقد نحل جسمه وتغير لونه وكان عهدي به بالمدينة أميراً علينا، حسن الجسم، ممتلئ البضعة، فجعلت أنظر إليه نظراً لا أكاد أصرفه عنه، فقال: يا ابن كعب ما لك تنظر إلي نظراً ما كنت تنظره إليَّ من قبل؟ فقلت: لعجبي قال: ومماذا عجبك؟ قلت: لما نحل جسمك وتغير لونك، فقال: كيف لو رأيتني بعد ثلاثٍ في قبري، حين تقع عيناي على وجنتَي، ويسيل منخري وفمي دوداً وصديداً، لكنت أشد نكرة منك اليوم ..!!

[2] كتاب الطب الشرعي منشورات جامعة دمشق- الدكتور زياد درويش ١٩٩٦م.

خطوط بنية متفرعة كالشجرة، تحت الجلد، في الصدر والبطن والظهر، ومنتفخة نتيجة تراكم غازات التحلل داخلها، مثل سلفيد الهيدروجين (H_2S)، والميثان، وثاني أكسيد الكربون(CO_2)، والأمونيا (NH_3) (شكل رقم ٩).

شكل رقم (٩): جثة في بداية مراحل التحلل.

وفي الأحوال العادية تتكون هذه الغازات في نهاية الأسبوع الأول من الوفاة، مؤدية إلى توتر وانتفاخ في الوجه، وكيس الصفن، وجدار البطن. وقد يؤدي ذلك إلى إخراج محتويات المعدة

من الفم، أو محتويات المستقيم من الشرج، أو إخراج جنين من رحم أمه.

كما يؤدي تراكم الغازات، إلى جحوظ العينين، وبروز اللسان بين الأسنان، وخروج زبد رغوي مدمى من الأنف والفم خلال الأسبوع الثاني من الوفاة، وتتكون نفطات غازية تحت الجلد، سرعان ما تنفجر، وتخرج الغازات منها، وتنبعث من الجثة رائحة كريهة نتنة. وتنفصل بشرة الجلد، فتصبح الجثة مشوهة جداً يصعب تمييزها.

يبدأ التحليل أولاً في الأمعاء، حيث مئات المليارات من الجراثيم الجاهزة للانقضاض والتكاثر والانتشار في الجثة، ثم المعدة والمخ، ثم يليها الكبد والطحال، حيث يتكون فيها فقاعات غازية، وتصبح كالكيس الممتلئ بالسائل الأخضر القاتم المنتن، وتحت ضغط الغاز المتزايد، سرعان ما ينفجر الكيس، فيصبح الصدر والبطن وقد امتلأ بالسائل نفسه، وهذا عبارة عن بحر متلاطم من الجراثيم اللاهوائية، التي وجدت مكانها وزمانها وأحسن غذائها. فتتكاثر وتتكاثر منتجة المزيد من الغاز ذي الرائحة المنتنة.

يتبع ذلك تفسخ وتحلل في القلب والرئتين ثم الكليتين والمثانة، أما الرحم[1] فيكون آخرها تحللاً لأن الله تبارك وتعالى جعله في وضع معين، بعيداً عن الجراثيم، لذلك يتأخر وصولها إليه، فيتأخر تحلله. وبعدها ينفجر جدار الصدر والبطن خلال الأسبوع الثالث، فتخرج السوائل والروائح المنتنة أكثر فأكثر.

وهذا يختلف من حيث زمن الظهور، من جثة إلى أخرى، تبعاً لدرجة الحرارة، والرطوبة، والتيارات الهوائية، والعمر، وسبب الوفاة.

وقد وضع الدكتور محمد أحمد سليمان، في كتابه: "أصول الطب الشرعي" بياناً تقريبياً، عن درجة التحلل، في الجثث المدفونة في أكفان من القماش، تحت الأرض، في قبور ملينة بالهواء (طريقة الدفن المعتادة عند المسلمين) على النحو الآتي:

١- بعد مضي ٢٤-٣٦ ساعة على الوفاة تظهر بقع خضراء، في جدار البطن، مقابل الأعور، أو حول السرة. كما يظهر كثير من الأوعية الدموية المتشعبة في جلد البطن والصدر، وتسيل مقلة العين، وتتعتم القرنية.

---

[1] " فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ" ٢١ المرسلات.

٢- بعد يومين إلى خمسة أيام يظهر الزبد المدمى من الفم والأنف، وينتفخ البطن والصفن، وينتشر اللون الأخضر في كل جلد البطن والصدر. وتظهر النفطات الغازية، تحت الجلد. وينتفخ الوجه والجسم كله بالغازات المتجمعة تحت الجلد، وتبرز العينان، واللسان، وتختفي ملامح الوجه، وتنبعث من الجثة رائحة كريهة، من الغازات المتصاعدة (شكل رقم ١٠).

شكل رقم (١٠): جثة منتفخة بعد خمسة أيام من الوفاة.

٣- بعد خمسة أيام إلى عشرة تسيل مقلة العين، ويتساقط الجلد الأخضر الهش، كما تتساقط الأظافر، والشعر، وتظهر اليرقات الدودية المتعددة، وبخاصة حول الفم والأنف، وأعضاء التناسل، ثم بعد ذلك تنحل الأنسجة، وتسيل في التراب تدريجياً، حتى تبقى العظام وحدها، بعد حوالي ستة أشهر إلى سنة.

والهيكل العظمي يتلاشى بدوره، ويعود إلى مكوناته الأساسية، مع مرور الزمن، إلا جزءاً صغيراً منه، اسمه عجب الذنب[1] ذكره لنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في أكثر من حديث شريف قبل اكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، حيث قال : "إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً، منه يُرَكب الخلق يوم القيامة. قالوا: أي عظم هو يا رسول الله؟ قال عجب الذنب"[2]. وقد حاول العلماء شرقاً وغرباً صهر هذا الجزء، من عظم الإنسان، أو إذابته بالأحماض القوية، أو تكسيره، فلم يستطيعوا. وصدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهو كما وصفه ربه: " وَمَا يَنطِقُ عَن

---

[1] عجب الذنب: جزء موجود داخل عظم العصعص الذي يقع في نهاية العمود الفقري.

[2] رواه مسلم.

الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى "[1].

بعد الوفاة مباشرة يبدأ التفسخ البسيط، فتظهر رائحة خفيفة، لا يدركها الإنسان ولكنها جاذبة للحشرات، وخاصة إناث الذباب، فتسرع لتضع بيوضها الصغيرة، دون أن يراها الإنسان في الفتحات الطبيعية، التي يمكن أن تصل إليها كالمنخرين والفم وزاوية العين وطيات الجلد في الرقبة، وأحياناً المناطق التناسلية... تضع آلاف البيوض الصغيرة، ثم لا تلبث أن تفقس، وتظهر يرقات صغيرة عديدة بيضاء، لا يتعدى طول الواحدة مليمتراً واحداً، ثم تتغذى على خلايا الجثة لتصبح حشرات بالغة، طول الواحدة سنتمتراً واحداً، ثم تضع بيوضاً جديدة(شكل رقم ١١)

شكل رقم(١١): جثة مغطاة باليرقات البيضاء والديدان

[1] الآيات ٣-٤ من سورة النجم.

وهكذا ...، أجيال عديدة من اليرقات والديدان، بحيث أنك في لحظة ما، لا ترى إلا كومة من الديدان تُغطي الجثة، وتتراكم فوقها، بل فوق بعضها، لتتلاشى هي والميكروبات، التي فسّخت الجثة من داخلها.

والغريب أن هذه اليرقات والميكروبات، التي كانت بالمليارات على الجثة وبداخلها، تتلاشى وتختفي كلياً بعد تحلل الجثة وتفسخها. لأنها يأكل بعضها بعضاً، ومن يبقى أخيراً منها يموت من قلة الطعام، فيتحلل بفعل أنزيمات خاصة، موجودة داخل خلاياها. فسبحان من خلقها وهداها لوظيفتها، وسبحان من قهر الكبير والصغير من مخلوقاته بالموت والفناء (شكل رقم١٢).

الشكل رقم (١٢):
قبر عائلي على شكل غرفة تظهر فيه بقايا الجثث وقد أصبحت تراباً.

هذه هي القاعدة الخالدة، والسنة الربانية في هذه الحياة التي تحكم جميع المخلوقات، وخاصة أكرمها وهم البشر، فكل إنسان مهما كانت حياته منعَّمة، ومهما قدمت له من عيش رغيد، وفرص الراحة والصحة والعناية، إلا أن الموت آتيه لا محالة " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ"[1] كتاباً مؤجلاً، حتى يستوفي كلٌ حصته، وما قسمه الله له في هذه الحياة.

فمهما كانت منزلته في الدنيا ، فقيراً أو غنياً ، صغيراً أو كبيراً، أميراً أو حقيراً، أبيض أو أسود، ذكراً أو أنثى، فنهايته إلى الحفرة الصغيرة... إلى هذا القبر ... ليدخل في مرحلة حياتية جديدة، هي حياة البرزخ، فيكون فيها تبعاً لعمله في الدنيا، إما في روضة من رياض الجنة، أو في حفرة من حفر النار[2].

وقد تعارف الناس على تسمية القبر ببيت الدود، وهي تسمية قديمة وصحيحة، قديمة لأن الناس في السابق، لم يكونوا يعرفون الميكروبات المجهرية، لأنها لم تكن قد اكتشفت بعد. بل كانوا يذكرون ما كانوا يرونه رأي العين، وهي الديدان واليرقات الصغيرة

---

[1] الآية ٥٧ من سورة العنكبوت.

[2] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِنَّمَا الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ" رواه الترمذي.

سالفة الذكر، وهي تنمو وتتكاثر وتنهش جسد الميت، حتى يتلاشى في قبره.

الميكروبات وأجساد الأنبياء

الحقيقة الخالدة التي وصفها الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز، " مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى...."[1] القاعدة المضطردة في هذا الكون، وهي التي تخضع لها رقاب البشر، طوعاً أو كرهاً، فهي سنة الله في مخلوقاته، تجري على الجميع، وخلق لتنفيذها الميكروبات، وهي المخلوقات المطيعة لربها، والمنقادة لأوامره التي فُطرت عليها: "الذي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى"[2] هداها لهذا العمل، وبرمجها فطرياً على ذلك

هذه القاعدة الراسخة والثابتة هي سنة الله في الكون، وهي ماضية إلى يوم القيامة، لا يعطلها ولا يحولها إلا الذي وضعها، متى شاء، ولمن شاء، وكيف شاء. رفعت الأقلام وجفت الصحف، فكل شيء بيده – سبحانه وتعالى – يقلب الأمور كيفما يشاء. فالميكروبات من جنوده، وطاعتها لخالقها كاملة، ففي موقع معين يُرسلها على فطرتها، لتقوم بعملها، وتنفذ أمر ربها، وفي موقع آخر يسحب هذه الإمكانية منها، ويأمرها بعدم القيام بالذي تقوم به في العادة.

---

(1) الآية ٥٥ من سورة طه.
(2) الآية ٥٠ من سورة صه.

ومثال ذلك ما حصل مع الرجل الصالح عندما مر ببيت المقدس، التي خربها وهدمها الملك الكافر بختنصر. فمن شدة اندهاشه بهذا الخراب، وما قاله العزير في حينها، ذكر الله – تبارك وتعالى – ذلك في قرآن يتلى إلى يوم القيامة، وفيه الكثير من العبر العظيمة، والمعاني العلمية الكريمة. " أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ....."[1]

في هذه الآية الكريمة يذكر الله – تبارك وتعالى – عن الطعام والشراب بأنه لم يتسنه، أي لم يفسد، بمعنى لم تحلله البكتيريا، وتخرِّبه كما تفعل عادة، وكما هو مألوف لدينا، رغم أنه مكث مائة عام. وفي الأحوال العادية، لا يمكث الطعام والشراب في العراء أكثر من عدة أيام، حتى تتلفه الميكروبات، ويتحول إلى مواد أخرى كلياً، ولا يبقى طعاماً على الإطلاق... إذن أوقف الله – تبارك وتعالى – عمل الميكروبات، الموجودة على الطعام والشراب، وفي الهواء المحيط، فلم تحرك ساكناً، بل كانت جندياً مطيعاً لأوامر ربه... !!

---

[1] الآية ٢٥٩ من سورة البقرة.

وفي الآية الكريمة نفسها يقول لـه - تبارك وتعالى - : " وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا.." أي أن الله قد ترك الميكروبات على سجيتها، فحلّلت لحم الحمار وعظمه ، وأصبح تراباً كغيره من المخلوقات، عندما تتفسخ وتتحلل. ثم أراه الآية العظيمة، كيف يُنشز الله العظام، ثم يكسوها لحماً، فيعود حماره كاملاً كما تركه قبل مائة عام، "... فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".

وفي الحادثة نفسها نرى وبمنطوق القرآن الكريم حالتين مختلفتين تماماً، لهما علاقة بالميكروبات، الأولى أوقف الله – تبارك وتعالى – فعلها، فلم يتحلل الطعام والشراب، وفي الثانية أجرى سنته، وتركها تقوم بعملها المعتاد، فتحلّل الحمار كلياً، فالميكروبات مخلوقات مطيعة لخالقها تماماً، "وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ"[1].

ومثال آخر من القرآن الكريم: "وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا"[2] هؤلاء الفتية النيام من يراهم يحسبهم أيقاظاً، لأن هيأتهم كالنائم ... ولكن كم ينام الإنسان ...!؟ "وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا

---

(1) الآية ٣١ من سورة المدثر.
(2) الآية ١٨ من سورة الكهف.

تِسْعاً"[1]، ومعروف علمياً أن من يلزم الفراش نائماً أو جالساً لمدة طويلة يصاب بتقرحات الفرشة. وخير وسيلة لتجنب ذلك، المداومة على تقليب المريض يَمنَةً ويَسرَةً، حتى لا تنضغط بعض أجزائه لمدة طويلة، فتموت الأنسجة، وتهجم الجراثيم، وتسبب التقرحات، ولذلك مضاعفات خطيرة. فالله – تبارك وتعالى – أنامهم ثلاثمائة وتسع سنوات، وقلَّبهم ذات اليمين وذات الشمال، ولم يحصل لهم ما يحصل للإنسان بالعادة، وهذا أمر علمي عظيم، عرفه الأطباء حديثاً، بحكم الخبرة والعمل، وجعلوه من أهم الأسباب، التي يجب أن يؤخذ بها تجنباً للتقرحات... !!

ولكن الله – تبارك وتعالى – يمكن أن يمنع ذلك دون الأخذ بالأسباب، لأنه على كل شيء قدير، ولكننا نحن البشر لا نستطيع ذلك. فقد جرى هذا مع الكلب الذي رافقهم المدة نفسها "وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد..." والأصل أن يصاب الكلب بالتقرحات ويموت، ولكن الله قدّر غير ذلك، وأوقف حدوث التقرحات، دون الأخذ بالأسباب، لأن الأسباب والمسببات بيده – سبحانه وتعالى – ، فهو يقدر ولا نقدر، وهو على كل شيء قدير.

---

[1] الآية ٢٥ من سورة الكهف.

هذا الخرق للعادة والسُنَّة الكونية، هو الكرامة والمعجزة بعينها. وهذا حصل وجرى على أيدي الأنبياء الكرام، وما زال يحصل على أيدي الأولياء الصالحين[1]. والميكروبات من جنود الله المطيعة، التي تشهد بصمت على كرامات أنبياء الله، فلا تحلل أجسادهم، رغم تواجدها فيهم كغيرهم من البشر، ورغم انهم يدفنون في الأرض، وفيها ما لا يحصى من الجراثيم.

وهذا أمر ليس بغريب، لأن الله يُكرم أنبياءه في الدنيا والآخرة، كيف لا وهم خير خلقه، وهو أعلم بهم، يتحملون ألوان المشقة والمعاناة[2]، في سبيل تبليغ أوامره، طاعة له، وانصياعاً لأوامره، يزهدون بالدنيا، ويطمعون بما عند الله، يخرجون من الدنيا، كما دخلوها لا درهم ولا دينار، رغم مقدرتهم على جمعها، إلى جنة عرضها السموات والأرض، عند مليك مقتدر، حيث الراحة الحقيقية، والحياة الخالدة.

---

[1] إن كان على يد نبي أو ولي صالح فهو المعجزة والكرامة. وإن كان على يد فاجر أو كافر فهو من عمل الشيطان وأحواله..

[2] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي العبد على قدر إيمانه فإن كان صلب الإيمان شدد عليه البلاء. وإن كان في إيمانه ضعف خفف عنه البلاء" صححه الحاكم على شرط الشيخين.

هذه السنَّة الكونية في تحليل الأجساد، يستثنى منها الأنبياء الكرام، فعن أوس بن أوس قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : "إن أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي"قالوا: يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ يقولون بليت فقال: إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء"[1].

وإذا قرأنا سورة سبأ، نجد أن الله – تبارك وتعالى – يتحدث عن النبي الكريم سليمان – عليه السلام – قائلاً: "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ"[2].

فإن الميكروبات، وبالتعاون مع الأرضة (وكلاهما من دواب الأرض) قد أكلت عصا سيدنا سليمان، وقد قدَّر العلماء في حينها أن تأكل العصا حتى ضعفت، وقد استغرق ذلك حوالي سنة، فلما ضعُفت أصبحت غير قادرة على أن تحمل ما عليها من ثقل فانكسرت. والعادة المألوفة والمثبتة علمياً، أن الجثة البشرية تتحلل

---

(1) رواه أبو داود والنسائي.
(2) الآية ١٤ من سورة سبأ.

أسرع من الخشب بكثير[1]. فلو أن الميكروبات والأرضة عملت حسب العادة في سنة الكون، لحللت جسد سيدنا سليمان أولاً، خلال عدة أسابيع، ثم بعد عام، أو أكثر، تحلل الخشب، المكون من مادة السيليلوز المعروف، كما ذكرنا سابقاً.

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، بل انقلبت الصورة تماماً، وتحلل الخشب، وتآكل، ولم يحدث للنبي الكريم شيءٌ ... ! فمن الذي أعلم هذه الميكروبات أن هذا الجسد لنبي كريم؟! ومن الذي عطَّل سنة الكون، وغيَّر المعتاد، ووجَّه الميكروبات إلى الخشب، دون الجسد؟! بل من الذي دلَّ هذه الميكروبات، التي أكلت صحيفة المقاطعة، – السالفة الذكر – على الظالم فيها فأكلته وأفنته...؟! وعلى المقدس فتركته ولم تأكله إجلالاً وتعظيماً...؟! يا إلهي ما أعظمك، وأحلمك بنا، نحن أهل العلم .. !

نعلم كل هذا ونعرفه...!!! ثم نعصيك...!

قتل الإنسان ما أكفره ...

وما أنكره للجميل..!!

"ولَقَدْ

---

[1] ونحن نعلم وبتجربة بسيطة، إذا وضعنا قطعة من اللحم وقطعة من الخشب في الهواء. نلاحظ أن قطعة اللحم تتفسخ وتخرج منها رائحة نتنة، وربما تظهر عليها بعض الديدان خلال أسبوع ثم تتلاشى. ولكن قطعة الخشب يمكن أن تبقى شهوراً بل سنوات حتى تتلاشى وتتآكل.

صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا"[1].

[1] الآية ٨٩ من سورة الإسراء.

الميكروبات وأجساد الشهداء

ما اعظم الجهاد! وما اعظم فضل المجاهدين في سبيل الله! فقد رفع الله قدرهم، وأعلى منزلتهم، وأجزل لهم الثواب، كيف لا وهو ذروة سنام الإسلام...! يُقدِّم المجاهد روحه رخيصة في سبيل الله، لأداء أمانة في عنقه، عاهد الله أن يبذل لنشرها نفسه، ودمه، وماله... هدفه هداية البشرية، بنور الإسلام العظيم[1].

لا يبغي بذلك مالاً، ولا جاهاً، ولا سلطاناً، إنما يبغي وجه الله وحده، وإعلاء كلمته، وإسعاد العالم بدينه، فإن قُتل المجاهد في سبيل هذه الأمانة العظيمة، والغاية السامية كان شهيداً وله أجر الشهداء.

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها"[2] فإذا كان هذا للمجاهد في سبيل الله وهو لم يُستشهد...! فكيف بمن جاهد في سبيل الله واستُشهد؟ وجاد بروحه ودمه في

---

[1] قال أبو هريرة رضي الله عنه: "أيستطيع أحدكم أن يقوم فلا يفتر، ويصوم فلا يُفطر ما كان حياً؟ قيل: ومن يطيق ذلك يا أبا هريرة؟ قال: والذي نفسي بيده إنَّ نوم المجاهد في سبيل الله أفضل منه"، جاء ذلك في كتاب الجهاد لعبد الله بن المبارك.

[2] رواه مسلم.

سبيل الله...! لا شك أنه سيكون أعلى مرتبةً، وأشرف مكانةً، وأكرم منزلة عند الله.

فالشهادة منزلة رفيعة، ودرجة عالية، ومرتبة كريمة، وهي رفعة وشرف ومنحة من الله – عز وجل – ، وهي اصطفاء وانتقاء، إنها منَّةٌ عظمى ونعمةٌ كبرى، ينعم الله بها على من يشاء من عباده، "وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء"[1]. ولإيمان المسلمين بما أعد الله للشهيد من مكانة عظيمة، انطلقت جحافل المجاهدين، وكتائب المسلمين، من صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والسلف الصالح، ومن اتبعهم بإحسان، تجوب أركان الأرض، مجاهدة في سبيل الله، والله يصطفي ويختار من يشاءُ من عباده المجاهدين.

فلا غرابة أن تكون الشهادة في سبيل الله مطلباً، وأمنية عزيزةً عند المؤمنين الصادقين، والمجاهدين المخلصين، يسعون إليها بكل ما أوتوا... والمجاهدون كُثُر ولكن الخُلَّص الذين يصطفيهم ربهم، ويختارهم إلى جواره قليل... ومن لم ينلها فعلياً، عمل لها وتمناها، وتضرع إلى الله أن يكتبها له. ورسولنا العظيم يقول: "من

---

[1] الآية ١٤٠ من سورة آل عمران.

سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه"[1]

فإن كان الشهداء في هذه المنزلة العظيمة من التكريم، وهم برفقة الأنبياء والصديقين، أحياءٌ عند ربهم يرزقون، ولا يصح أن نقول عنهم أموات، بنص الآية الكريمة: "وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ "[2] فما داموا هكذا، فلا غرابة أن تظهر لهم كرامات، ويشهد لهم بذلك الصامت، والناطق، والمميز، وغير المميز من مخلوقات الله، لأنها تكرم من أكرمه الله... كيف لا وهي صغيرها وكبيرها من جنود الله؟! "... وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا"[3]

ولكن أي شهيد هو المقصود بهذه الكرامات ؟ وعن أي نوع من الشهداء نكتب؟ بل عن أي درجة من درجات الشهادة نتحدث؟... ولأن الشهادة منزلةٌ رفيعة، ودرجةٌ عالية، ومرتبةٌ كريمة، بل مراتب ودرجات، فقد جعلها العلماء أكثر من قسم، واستخدموا لكل قسم مصطلحات معينة منها.

---

[1] رواه مسلم.
[2] الآية ١٥٤ من سورة البقرة.
[3] الآية ٤ من سورة الفتح.

أولاً: شهيد الدنيا والآخرة، أو شهيد المعركة، أو الشهادة الكبرى: وهذه تُطلق على الشهيد، الذي يُقتل في قتال الكفار، مقبلاً غير مدبر، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، دون غرض من أغراض الدنيا. وهم الذين وصفهم ربهم سبحانه بأنهم أحياء يرزقون: " وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ"[1] وإنَّ كرامات عدم تحلل الأجساد من قبل الميكروبات والديدان، خاصة بهذا النوع من الشهداء، دونما إنقاص من أجر وثواب أصحاب الدرجات الأخرى من الشهداء، فالله – تبارك وتعالى – أعدّ للمجاهدين في الجنة مائة درجة لقوله – صلى الله عليه وسلم - : "أن للجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنها وسط الجنة وأعلاها، وفوقها عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة"[2].

ثانياً: شهيد الآخرة، أو شهيد غير المعركة، أو الشهادة الصغرى، وقد سمى رسول الله- صلى الله عليه وسلم - أهلها شهداء في أحاديثه، ولكنهم لم يقتلوا في معركة الكفار، وإنما ماتوا ميتات مختلفة، كمن قتل مظلوماً أو مطعوناً أو مبطونا أو بهدم أو حرق أو

---

(1) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.
(2) رواه البخاري.

تردى من شاهق، أو وقصته دابة فمات، أو قتل دون ماله أو دينه أو أهله، أو مظلمته، أو المرأة تموت بجُمع وصاحب ذات الجنب، أو من لدغته هامّة، أو مات على فراشه، وكان قد سأل الله الشهادة بصدق، أو افترسه السبع، أو مات بالحمى، والميت في السجن مظلوماً، ومن مات غريباً أو شريقاً أو مات بالسل وغيرهم. وقد ذكر السيوطي أنه جمعهم فناهزوا الثلاثين"[1]

ولضبط الشهادة، وتحديد من هو الشهيد، وضع العلماء شروطاً للشهادة، استخلصوها من كتاب الله، وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم -.

أولاً : الإسلام: فالكافر لا تُقبل له صلاة ولا زكاة ولا صوم ولا حج ولا جهاد، ولا غيره ما دام كافراً، لذلك فالكفرة لا تنفعهم أعمالهم ولا عباداتهم، لأنها صادرة عن عقيدة باطلة، واعتقاد فاسد.

ثانياً : النية: إخلاص النية لله – سبحانه وتعالى – مطلوبٌ من المسلم، في جميع عباداته وأعماله، فالنية الصالحة تحوّلُ عمل المسلم إلى عبادة يُؤجر عليها، ويُثاب عليها، ولأهمية ذلك كان علماء السلف يفتتحون مؤلفاتهم بحديث الرسول – صلى الله عليه وسلم - "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت

---

[1] الديباج، للسيوطي، تحقيق أبي اسحق الحويني، الطبعة الأولى، ج ٤، ص ٥٠٨.

هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه"[1].

والنية والإرادة والقصد تأتي على معنى واحد، وهي حالات وصفات قلبية، لا سبيل للبشر إلى قياسها، بل لا يعلمها إلا الله. والشهادة منوطة بالنية، فلا يكون الشهيد شهيداً إلا إذا قُتل في سبيل الله، لإعلاء كلمته، ونصرة دينه، مقبلاً غير مدبر.

ثالثاً: أن تكون الشهادة في قتال مشروع، والقتال المشروع هو في سبيل الله، فالإسلام لا يعرف قتالاً إلا في هذا السبيل، لا يعرف القتال للغنيمة، ولا للسيطرة، ولا المجد الشخصي، أو القومي. إنه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض، ولا للاستيلاء على السكان، أو الخامات الصناعية، والأسواق الاستهلاكية... إنه لا يقاتل لمجد طبقة، أو دولة، أو أمة، أو جنس، إنما يقاتل في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله في الأرض، ولتمكين منهجه في تصريف الحياة، وإشاعة العدل بين الناس... فإذا قاتل المسلم بهذا المفهوم الرباني ثم قُتل، فاز بالشهادة ونال مقام الشهداء عند الله.

رابعاً: أن يقتل في المعركة مقبلاً غير مدبر:

---

[1] متفق عليه.

والخوف حالة نفسية ضاغطة، تربك صاحبها وتقهره أحياناً، وتستشري في كيانه كله، النفسي والبدني. ولكن المؤمن يتغلب على ذلك بقوة إيمانه، لأنه يعلم أن الأجل بيد الله، وان قوته موصولة بقوة لله، الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، فلا يمكن لمؤمن مجاهد في سبيل الله، أن يولي يوم الزحف، خوفاً على الحياة، لأنه يعلم يقيناً أنه إلى الله، إن كان حياً، وإلى الله، إن كُتبت له الشهادة... فكيف يفكر بالفرار من كانت الشهادة أمنيته، وها قد حانت فرصته ... ؟!

فمن اجتمعت به هذه الشروط الأربعة، واصطفاه الله واختاره لجواره فقد فاز فوزاً عظيماً، وأصبح الشهيد الحي، الذي ينال أوسمة الدنيا والآخرة، وسلسلة من الامتيازات والكرامات، التي يستحيل على مدارك البشر استيعابها.

وقد كثرت الأحاديث عن كرامات عظيمة، ظهرت في أرض الجهاد، وما زالت، وخاصة في الأرض المباركة، في بيت المقدس وأكنافه. هذه الأرض الطاهرة، وهذا الجهاد العظيم الموصول، الذي لم ينقطع يوماً. فلا يوجد فيها شبر، إلا ودب عليه نبي أو جُبل بدم صحابي، كيف لا وهي مهد الحضارات، ومهبط الأنبياء، وأولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين.

وقد ظهر في جهاد الأفغان من كرامات الشهداء الشيء الكثير. وقد سطر ذلك الشهيد الدكتور عبد الله عزام – رحمه الله – في كتاب اسماه "آيات الرحمن في جهاد الأفغان"، وفيه من الكرامات المذهلة، التي لا يمكن أن يصدقها إلا المؤمنون، الذين يؤمنون بقدرة الله عز وجل.

وقد استشار العلامة المرحوم بإذن الله الشيخ عبد العزيز إبن باز في جواز نشرها، فشرح الله صدره لذلك، كما استشار الأستاذ الدكتور عمر الأشقر، فقال له: أهم شيء هو صحة الرواية. فإن كان الرواة صادقين، فيجب أن نعلنها، سواء وافقت عقول الناس، أم لم توافق.

ورغم أن الحاقدين من غير المسلمين اتخذوا هذه القصص والكرامات مادة للسخرية واللمز والطعن بالدين، إلا أن التاريخ يعيد نفسه. فالشهيد الدكتور عبد الله عزام يقول في كتابة "أذكِّر الإخوة الذين يعلمون ويمنعهم الحياء من ذكر هذه القصص. أذكِّرهم بحادثة الإسراء والمعراج التي أخبر عنها رب العزة على لسان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم يكن في الأرض من يؤمن بهذه القصة سوى أفراد يقلون عن مائة، اتخذها سدنة الكفر حديثاً دسماً للتشكيك بصدق النبي – صلى الله عليه وسلم - ... وإن أعداء الإسلام لا يؤمنون بالله ابتداءً ولا بدينه شريعة للحياة ومنهجاً

للتعامل، فهل نريد أن نقنعهم عن طريق إخفاء هذه القصص. إن عالم الغيب كله ليس له حساب في تفكير الكفار... والمسلم عقيدته معظمها قائمة على الإيمان بعالم الغيب "فالإيمان بالله وملائكته والوحي والبعث والحشر والنشر وعذاب القبر والجنة والنار ..." هذه كلها لا وزن لها في أذهان هؤلاء الناس. فهل نتخلى عن هذا كله أم نفلسفه فلسفة مادية منطقية، من أجل إرضائهم؟!!

من كان لا يؤمن بالله أصلاً فكيف له أن يؤمن بمعجزات الرسول - صلى الله عليه وسلم - ؟! كتسبيح الحصى في كفه[1]، وحنين الجذع إليه[2]، ونبع الماء من بين أصابعه[3]، ورده لعين أبى قتادة حين سالت على خده فرجعت أحسن عينيه[4]. ومسحه على رجل عبد الله بن عتيك التي انكسرت فبرئت[5] ... وكيف له أن يؤمن بكرامات الصحابة، مثل أم أيمن، التي خرجت مهاجرةً وليس معها زاد ولا ماء، فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر، وكانت

---

[1] رواه البزار والطبراني عن أبي ذر.
[2] رواه مسلم عن جابر.
[3] في الصحيحين عن جابر.
[4] رواه الطبراني وأبو يعلى.
[5] رواه البخاري.

صائمة، سمعت حفيفاً على رأسها، فرفعته فإذا دلوٌ معلقٌ، فشربت منه حتى رَوِيَتْ، وما عطشت بقية عمرها[1].

ومولى رسول الله- صلى الله عليه وسلم - الذي كلَّم الأسد، فلم يؤذه، بل مشى الأسد أمامه، حتى أوصله مقصده[2]... وأبو مسلم الخولاني الذي ألقاه الكفارُ بالنار، فوجد قائماً يُصلي فيها، وصارت عليه برداً وسلاماً[3]...!!

ويقول الشهيد الدكتور عبد الله عزام – رحمه الله – في كتابه: هذه قصص حقيقية، أغرب من الخيال، وواقع أشبه بالأساطير، سمعتها بأذني، وكتبتها بيدي، من أفواه الذين حضروا من المجاهدين، فهذه الكرامات، سمعتها من رجال ثقات، ما زالوا في خضم المعركة، وهي كثيرة، وتصل إلى حد التواتر، أما الرجال الذين رووا معظم القصص، فإني أظن – والله اعلم – أنَّ البخاري، لو كان حياً لكانوا من أسانيده، (كناية عن صدقهم والتزامهم).

فمن الشهداء من شوهدت جثثهم بعد سنتين، وبعضهم بعد ثلاث سنوات ولم تتغير، ورائحة أحدهم كالمسك، وبعضهم كان جرحه لا يزال ينزف دماً. ومنهم الشهيد الذي صافح والده، بعد أيام

---

[1] رواه الصنعاني.
[2] رواه الحاكم وصححه على شرط مسلم.
[3] صفوة الصفوة، ج٤ ، ص ٣٠٨ .

من موته..!! ومنهم الذي استشهد، واحتضن رشاشه ولم يستطع أحد أن يأخذه منه... حتى جاء إخوانه، وخاطبوه: يا يعقوب نحن إخوانك، فترك الرشاش وأخذوه...! والشهيد شاه (حافظ القرآن) زار قبره عمر حنيف، وقائد الجبهة، بعد سنتين ونصف، فكشفوا عن قبره، فوجدوه كما وضعوه سابقاً، ولكن الأعجب كما يقولون: إننا وجدنا فوقه عباءة سوداء حريرية، لم نر مثلها أبداً في الأرض، ولمسناها فإذا رائحتها أطيب من المسك والعنبر... أما عن مبيت الحيات في فراش المجاهدين دون أن تؤذيهم فحدِّث عن ذلك ولا حرج.

الميكروبات والغلام الشهيد

رغم أن الشهادة اصطلاحٌ إسلامي شرعي خاص بالإسلام والمسلمين، ولم يكن معروفاً عند العرب قبل الإسلام، ولا عند غيرهم، إلا أن الإيمان بالله، والالتزام بأوامره، واتباع أنبياء الله الكرام، أوجد مؤمنين، هم أمة التوحيد، أمضوا حياتهم عُباداً ونُساكاً لله تعالى، ومنهم من دفع حياته بسبب ثباته على دينه، فأستحق عند الله، ما يستحق الشهيد، وظهرت له كرامات عظيمة، أثناء حياته وبعد مماته.

فالشهادة قيمةٌ عظيمة، وهي منحة من الله، لمن أحبهم واختارهم من عباده، منذ خلق الكون، وجعل الحق والباطل في هذه الحياة. وقد أوجد الله شهداء قبل الإسلام، وظهرت لهم كرامات، وليس أدلَّ على ذلك من قصة الغلام الشهيد، الذي أكرمه الله بالإيمان على يد الراهب، وبسبب صدق إيمانه، والتزامه، فقد سبق شيخه، فأجرى الله على يديه كرامات، منها قتل الدابة، التي حبست الناس، وكان يبرئ الأكمه والأبرص، بإذن الله... ثم علم به الملك الكافر فحاول أن يرده عن إيمانه ولم يستطع وبقي الغلام ثابتاً على دينه... فقتله.

هذا الغلام الذي عاش مع قومه في نجران، بين بعثة عيسى – عليه السلام – وبعثة المصطفى- صلى الله عليه وسلم - واستُشهد قبل البعثة بسنين طويلة... أخرج من الأرض زمن عمر إبن الخطاب – رضي الله عنه – وإصبعه على صدغه، كما وضعها حين قتل[1].

وقصة الغلام الشهيد، وردت في حديث صحيح رواه مسلم، يقول فيه رسول الله- صلى الله عليه وسلم -: " كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ، وَسَمِعَ كَلامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ، وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ، قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ، فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ

---

[1] رواه الترمذي، وقال حديث حسن غريب.

الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ، فَلا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ، وَالأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ، مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ، كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ، دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ، كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، قَالَ: رَبِّي قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ، حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلامِ، فَجِيءَ بِالْغُلامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ، وَالأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ. فَأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ. فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ، حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلامِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلا فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمْ الْجَبَلُ، فَسَقَطُوا. وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى

الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمْ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي، حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلامِ، ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ، فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ، فَمَاتَ. فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ، فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ، وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ".

هذا الغلام الداعية، الذي قدم روحه رخيصة في سبيل الله، ليسعد غيره بنعمة الإيمان، آثر ما عند الله على كل العروض الدنيوية التي قدمت له ... فآمن قومه بدينه، بعدما رأوا ثباته ... ففاز بثواب الداعية العامل الصابر ... وبالشهادة التي يتمناها كل داعية ... فكان له ما كان من امتيازات عظيمة، أقلها أن حفظ الله جسده في قبره كل هذه السنين... فكرامة في الأرض ... ونعيم في السماء.

الميكروبات وشهداء أحد

رجال حول الرسول العظيم، شرح الله صدورهم للإسلام، فآمنوا برسالته، ورأوا من المعجزات ما زادهم به يقيناً ، فتغيرت حياتهم، وأعادوا صياغتها من جديد، فتركوا كل ما ينافي شرع الله على عتبة الإسلام العظيم. فكانت راحتهم في عبادة ربهم، وطاعة رسولهم. أجسادهم كأجسادنا، مكونة من المادة نفسها، وعليهم ما علينا من مخلوقات الله المجهرية، لكن أرواحهم الطاهرة، وأنفسهم الكبيرة، التي تعبت في مرادها أجسامهم، هي المختلفة، هي التي جعلتهم جيلاً مميزاً، فهم رهبان الليل فرسان النهار. إذا نادى منادي الجهاد، تركوا كل شيء وراءهم، طاعة لخالقهم، ويقيناً بأنَّ ما عند الله خير وأبقى. فمنهم من خرج للجهاد جُنُباً[1] فلم يجد متسعاً من الوقت للاستحمام والتطهر، من شده تعلقه بإجابة نداء الجهاد.

هؤلاء الصحابة الكرام، الذين صدقوا الله – تبارك وتعالى –، وأبلوا في معركة أحد بلاءً حسناً، وتمنوا الشهادة بصدق، وعملوا لها، اختارهم الله لجواره، واتخذهم شهداء معركة، مقبلين

---

[1] عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: لما أُصيب حمزة بن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب – رضي الله عنهما – وهما جُنُبان فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : " رأيت الملائكة تغسلهما" رواه الطبراني في المعجم الكبير.

غير مدبرين... وفازوا برضوان من الله، وجنة عرضها السموات والأرض... فكانت لهم كرامات عظيمة، منها ما هو في فلك مدارك البشر ومنها ما هو أعظم، لا قدرة للبشر على استيعابه.

فهذا جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال: لما حضر أحد، دعاني أبي من الليل، فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي- صلى الله عليه وسلم -، وإني لا أترك بعدي أعز عليّ منك، غير نفس رسول الله- صلى الله عليه وسلم -، فإنّ عليَّ ديناً فاقضه، واستوص بأخواتك خيراً، فأصبحنا فكان أول قتيل. ودفن معه آخر في قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته..." [1]

وفي رواية لأحمد "... فبينا أنا في خلافة معاوية بن أبي سفيان، إذ جاءني رجل، فقال: يا جابر بن عبد الله، والله أثار أباك عمال معاوية، فبدا فخرج طائفة منه، فأتيته فوجدته على النحو الذي دفنته لم يتغير... فواريته"[2].

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: لما قتل أبي يوم أحد قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "يا جابر ألا أخبرك ما قال الله لأبيك؟ قال: بلى. قال: وما كلم الله أحداً إلا من

---

(1) رواه البخاري.
(2) رواه أحمد.

وراء حجاب، إلا أباك! كلَّم الله أباك كفاحاً فقال: يا عبد الله، تمنَّ علي أعطك قال: فقال: يا رب تردني فأقتل فيك ثانية فقال: سبق مني أنهم إليها لا يرجعون قال: يا رب فأخبر من ورائي. فأنزل الله - عز وجل - : " وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ "[1]"[2].

ومن رواية مالك عن عبد الله بن أبى صعصعة، أنه بلغه أن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو الأنصاريين، كانا قد حفر السيل قبرهما، وكان قبرهما مما يلي السيل، وكانا في قبر واحد، وهما ممن استشهد يوم أحد، فحفر عنهما ليغيروا من مكانهما، فوجدا لم يتغيرا، كأنهما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جرح، فوضع يده على جرحه، فدفن وهو كذلك، فأميطت يده عن جرحه، ثم أرسِلت فرجعت كما كانت، وكان بين أحد ويوم حفر عنهما ست وأربعون سنة.

ويذكر القرطبي[3] تحت عنوان" لا تأكل الأرض أجساد الأنبياء ولا الشهداء وأنهم أحياء" ... ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة في شهداء أحد وغيرهم. روى نقلة الأخبار أن معاوية –

---

(1) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.
(2) رواه ابن أبي عاصم في كتاب الجهاد ٥١١/٢ ح ١٩٦.
(3) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة... القرطبي ١٦٥.

رحمه الله – لما أجرى عين الماء، التي استنبطها بالمدينة، في وسط المقبرة(مقبرة أحد)، أمر الناس بتحويل موتاهم. وذلك في أيام خلافته، وذلك بعد أحد بنحو من خمسين سنة. فوجدوا على حالهم حتى أن الكل، رأوا المسحاة وقد أصابت قدم حمزة بن عبد المطلب (سيد الشهداء) فسال منه الدم .

وقد روى أهل المدينة: أن جدار قبر النبي – صلى الله عليه وسلم – لما انهدم، أيام خلافه الوليد بن عبد الملك بن مروان، وولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة. بدت لهم قدمٌ، فخافوا أن تكون قدم النبي – صلى الله عليه وسلم – ففزع الناس.. حتى جاء سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فعرف أنها قدم جده عمر – رضي الله عنه – . وكان رحمه الله قتل شهيداً"[1]

وقال شارح العقيدة الطحاوية: "وحرَّم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ...، أما الشهداء، فقد شوهد منهم بعد مددٍ من دفنه، كما هو لم يتغير، فيُحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشره، ويحتمل أنه يبلى مع طول المدة، وكأنه –والله أعلم– كلما كانت الشهادة أكمل، والشهيد أفضل، كان بقاء جسده أطول"[2].

---

[1] وكانت أمنية الفاروق رضي الله عنه تظهر في دعائه" اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك" وقد نال ما تمنى.

[2] شرح العقيدة الطحاوية ٤٥٦

شهداء ... وشهود ... وكرامات

الحق والباطل حيثما اجتمعا تصارعا، بغض النظر عن الزمان والمكان، وبغض النظر عن لغة اتباعهما، وهذه من سنن الله في كونه، وستبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن يستعرض التاريخ يجد أن هذه المشاهد تتكرر على المستوى الفردي والجماعي، وما زالت حتى يومنا، فظالم يبوء بالإثم، بسبب كفره وظلمه، ومظلوم يفوز بجائزته، بسبب ثباته واستقامته، وبذله، وعطائه، ومقارعته للباطل، إرضاءً لربه، وطمعاً بجنته.

وأول الفائزين بعد الأنبياء هم الشهداء، فما أعظم عملهم! وما أشرف ما عملوا له! فهم الذين يذودون عن دين الله، لمصلحة الآخرين، وهم الذين يقدمون أنفسهم وأرواحهم وأموالهم رخيصة لراحة غيرهم، وهم الذين اصطفاهم واختارهم ربهم لجواره، وهم الذين أكرمهم في الدنيا والآخرة.

وقيمة الإنسان جسداً وروحاً تكمن في صحة اعتقاده والتزامه، فإذا مات بقي جسده في الأرض، وجرى عليه ما يجري على أجساد البهائم والحيوانات، من تحلل وتعفن واندراس.. أما الروح فهي إلى نعيم مقيم، أو إلى عذاب مهين، إلا الشهداء، فتكريم

لأرواحهم بالجنة، فهي في حواصل طير خضر[1]، وتكريم للأجساد في الأرض، وهم أحياء يُرزقون ولا يُرزق إلا حي.

ورغم أننا لا نجزم لأحد بالشهادة، إلا من أخبر عنه رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، لأن الشهادة منوطة بالنية، وأمْر النية موكولٌ إلى الله – سبحانه وتعالى – ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب، إلا أننا نستطيع ذكر فلان بالشهادة تيمناً ودعاءً وحُسن ظن بظاهر حاله، وصالح أعماله وأفعاله، متمنين على الله أن يكون من الشهداء.

وقد كثرت الأخبار والروايات في كل مكان فيه جهاد واستشهاد، رواياتٌ تتحدث عن أجساد الشهداء، التي لا تتغير، ولا تتعفن، رغم مرور الزمن عليها، بينما أجساد الآخرين في الأماكن والظروف ودرجات الحرارة نفسها تتغير وتتعفن وتندرس، وربما تأكلها الكلاب والسباع .

وقد سمعنا من ثقاتٍ، أفرادٍ وجماعاتٍ، منهم ما زال على قيد الحياة، ومنهم من استشهد، سمعنا مراراً وتكراراً بأنهم شاهدوا بأعينهم أجساد الشهداء بعد دفنها لسنوات عديدة، لم تتغير ولم

---

[1] عن ابن كعب بن مالك عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلقُ من ثمرة الجنة أو شجر الجنة" رواه الترمذي

تتبدل، وجراحها نازفة، رائحتها المسك، لينة المفاصل، دافئة كأنما دفنت لتوها.

ومن هذه المشاهد والكرامات الناطقة، ما أورده الشهيد الدكتور عبد الله عزام في كتابه "آيات الرحمن في جهاد الأفغان" حيث عاش المعركة بكل أبعادها، حتى اصطفاه ربه وأكرمه بالشهادة.

ومنها ما يرويه الدكتور محمود النجار[1] أستاذ الآثار المتخصص بالعظام البشرية- في جامعة اليرموك الأردنية، حيث سمعت منه مباشرة، واصفا ما شاهده بأم عينه، من شهداء الجيش المصري، الذين جاهدوا في فلسطين ضد أعداء الله اليهود عام ١٩٤٨م. حيث قال: إنه شارك شخصياً مع شقيقه عام ١٩٥٦في احتفال تكريمي أقيم لشهداء من الجيش المصري، الذين جاهدوا في سبيل الله ضد اليهود عام ١٩٤٨. وقد رأى بأم عينه في ذلك الاحتفال الذي نُقل فيه حوالي خمسة وأربعين شهيداً بملابسهم، ما زالت أجسادهم كما هي، رغم مضي ثمانية أعوام على استشهادهم..! وهناك مشاهد وكرامات وقصص كثيرة، ما زالت

---

[1] الدكتور محمود النجار، درس الآثار في أمريكيا جامعة كنساس وعمل هناك لمدة طويلة ثم التحق بمعهد الآثار – في جامعة اليرموك في الأردن وهو لا يزال على رأس علمه.

تذكر عن أبطال من الجيش الأردني، الذين قضوا في سبيل الله دفاعاً عن حمى الإسلام، وأولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين[1].

ومن ضمن هذه القصص الكثيرة التي تذكر أيضا عن الشهداء الذين قضوا على أرض الحشد والرباط، أرض الأردن المباركة، ما رآه الناس رأي العين من شهداء مغارة الشوبك، التي دفنت فيما بعد. وعن شهيد معان، الذي ظهر كاملاً كما هو أثناء شق الطريق.

أما قصة الشهيدين[2]، الذين قضيا أثناء المعركة مع اليهود في ١٩٦٧م في غور الأردن، حيث قصفت سيارتهما، التي كانت تنقل الذخيرة، من قبل طائرات العدو، واستشهدوا فوراً في مكانهما، ووضعت جثتاهما في مغارة قريبة، وتركتا بسبب حالة الطوارئ، والانشغال بالحرب. ولم يرهما أحد حتى عام ١٩٧٠م، عندما تمركزت الكتيبة الهاشمية العاشرة في تلك المنطقة، وكانوا يبحثون عن مغارة آمنة لتكون مقراً لقيادة الكتيبة، وعندما وجدوا

---

[1] ومنهم الشهيد العريف حسين محمد عوض المومني من بلدة عبين في محافظة عجلون – الأردن. الذي استشهد على أرض فلسطين عام ١٩٦٧م في منطقة طوباس، ثم وُجدت جثته بعد ما يزيد على عشرة سنوات من استشهاده، كاملة لم تتغير، وقد رفض أهل طوباس نقل جثة الشهيد إلى مسقط رأسه، تيمنا بها وتكريما لها.

[2] هذه القصة سمعتها مباشرة من سماحة الدكتور الشيخ نوح القضاة حيث كان مفتياً للجيش الأردني في حينها ثم أصبح قاضياً للقضاة في الأردن لاحقاً.

المغارة، ودخلوا لترتيبها، فوجئوا بوجود جثتين كاملتين كما هما (بعد ٣ سنوات من الاستشهاد)، جثة منهما كاملة إلا من حرق لنصف الوجه بسبب الإصابة، ووجد بجيبه ثلاثة دنانير، وشهادة التعين في الجيش الأردني. أما الجثة الثانية فهي كاملة إلا من حروق في مناطق مختلفة من الجسم.

وقد جمع قائد الكتيبة الهاشمية أفراد الكتيبة، وأطلعهم على الجثث، حيث رأوها رأي العين وقال لهم ما معناه "إن الكلام الذي نسمعه من الشيوخ صحيح، وما ترونه أمامكم دليل عملي على مصداقية هؤلاء" فقام جنود الكتيبة بحفر قبرين على تله مشرفة، ونقلوا الجثتين إليهما. وهما ما زالا في مكانهما في غور الأردن، شاهدين على كرامة الشهداء.

أما الشيخ المجاهد حافظ سلامة، الذي ذكر قصه الشاب المجاهد أسامة إبراهيم. حيث شارك في معركة ضد اليهود سنة ١٩٧٣ "معركة الدفرسوار"، ثم استُشهد ودُفن حيث قُتل، وقد ضرب اليهود حصاراً على تلك المنطقة، بقيادة شارون لمدة ستة أشهر. وعندما فك الحصار، يقول الشيخ حافظ سلامة: وإذا بأهل أسامة إبراهيم يأتون للشيخ، ويخبرونه بوصية الشهيد أسامة، التي يطلب فيها أن يتولى الشيخ حافظ سلامة تجهيزه، والصلاة عليه، ودفنه بيديه... فلما رأى الوصية سار مع أهله، إلى حيث دُفن، وكان

قد مضى على استشهاده ستة أشهر حينها. فلما كشفوا عن جسده، أقسم الشيخ حافظ سلامة، وهو رجل مجاهد ثقة، أنه وجده وبحضور أهله مبتسماً، مفروق الشعر، كأنه خارج لتوه من الاستحمام..!!

وأما ما ذكره لي شخصياً الدكتور يحيى إسماعيل[1] أستاذ الحديث وعلومه في جامعة الأزهر، ورئيس هيئة علماء الأزهر السابق، فهو أعجب وأغرب حيث قال: " كنت أستاذا مشاركاً في كلية الدعوة وأصول الدين في جامعة أم القرى عام ١٩٨٩م وحضرت توسعة الحرم المكي في حينها، من ناحية سوق الليل. وأثناء عمل الجرافات، وإزالة أنقاض البيوت، وحفر الأرض وتسويتها، ظهرت مجموعة من الجثث، وقد كنت مع من شاهدها كما هي وكأنها لُفت من ساعتها ... فقيل في حينها إنهم من شهداء الصحابة، ذلك أن الدفن في هذا المكان غير معهود منذ أمد طويل.

وبعد التحري والسؤال والتنقيب، وحيث أنها لم تدر معارك مع الصحابة – رضوان الله عليهم – في ذلك المكان. كان الاحتمال الأرجح الذي رجحه لنا فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد، أستاذ التفسير وعلوم القرآن، في جامعة أم القرى، في حينها

---

[1] التقيته في الكويت في محاضرة لي عن "الميكروبات وكرامات الشهداء" بتاريخ ٢٠٠٤/٣/٢٠م.

وفي الأزهر قبلها، وكان عضو رابطة العالم الإسلامي، هو أن هذه جثث بعض المؤذنين المحتسبين[1] الذين كانوا في الحرم المكي، منذ عقود سابقة، ودفنوا في ذلك المكان.

[1] عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: "المؤذن المحتسب كالشهيد المتشحط في دمه إذا مات لم يدود في قبره" المنذري في الترغيب والترهيب ج١٨١/١ رقم ٢٤.

شهداء الأرض المباركة

أرض مباركة، وشباب نشأوا في طاعة الله، قلوبهم تعلقت بالمساجد، حملوا هموم أمتهم بصدق، فتقدموا، وقدموا أرواحهم رخيصة في سبيل الله، تاركين الدنيا وما فيها، طامعين بما عند الله، تراهم يعيشون بين الناس، ولكنهم ليسوا مثلهم. فقد تعبت أجسادهم في مطالب أنفسهم الكبيرة، كيف لا؟! وهم الذين حفظ الله مراهقتهم، وبلّغهم حكمة الكبار، على صغر سنهم، فعاشوا هموم الأمة وقضاياها.

فإذا استعرضت السيرة الشخصية لهؤلاء الأبطال، وجدتهم يشتركون في قواسم عظيمة من النضوج المبكر، ومعرفة طبيعة الصراع بيننا وبين يهود، فهم أصحاب قلوب عامرة بالإيمان، أمنيتهم المشتركة "أن تدخلني ربي الجنة هذا أقصى ما أتمنى" فكانت أقصر الطرق لذلك جهاد اليهود، والاستشهاد في سبيل الله.

لذلك نجد المجاهد منهم جاداً في حياته، ملتزماً بأوامر ربه، دائم التعلق بالمساجد، حافظاً لكتاب ربه، عطر السيرة، حسن الأخلاق، متميزاً بإخلاصه وحسن صحبته، زاهداً متعبداً، دائم الحب والذكر لمن سبقه في الاستشهاد، مُلِحاً في دعائه على الله أن يرزقه الشهادة مقبلاً غير مدبر.

فهؤلاء هم النجوم المضيئة في ليل أمتنا الحالك، فلو بحثت عن الوعي فهم قمته، وعن الالتزام فهم أساتذته، وعن الإخلاص فهم نماذجه، هؤلاء هم أساتذة الجيل الإسلامي المعاصر، إنهم رواد الحاضر والمستقبل، ولذلك اصطفاهم واختارهم ربهم دون غيرهم. فالناس كثر ولكن العاملين قليل، والمجاهدين أقل، ولا يختار الله منهم ويصطفي إلا الصفوة الخُلَّص.

فهؤلاء الذين يجاهدون على الأرض المباركة دفاعاً عن حياض الإسلام والمسلمين حول أولى القبلتين, يقاتلون عدو الإسلام الأول، اليهود الذين جبلت أنفسهم على كل أنواع نواقص النفس البشرية، فلا عقود ولا عهود ولا مواثيق، أنانية قاتلة، وكره متمكن للإسلام وللمسلمين ... فمن يقاتل مثل هذا العدو، ويجعل من نفسه رأس رمح في المواجهة، نيابة عن المسلمين، ويقتل على هذه الأرض الطاهرة، وبهذه النية الكريمة، فكيف لا تكون له كرامة مثل غيره، بل كرامات وكرامات.

كرامات هؤلاء تترى، فنور القبور، ورائحة المسك في دمائهم الزكية، في ثيابهم بل في حجارة قبورهم وتربتها ، بل تفوح من أجسادهم حال استشهادهم، كرامات لم يشاهدها واحد فقط أو يذكرها شخص بمفرده، حتى تضعف روايته، ولكنها جموع

الحاضرين والمشيعين، بل مئات الآلاف منهم، حتى أصبحت لكثرتها مألوفة عندهم.

وهناك سلسلة طويلة من الشهداء، كل له قصة مع الكرامات، ولكن سأكتفي بذكر أمثلة منها.

"نسمع كثيراً عن كرامات الشهداء، وغالباً ما كنت أعتقد أنه مبالغ فيها ولا أصدقها، برغم إيماني بوجودها، لكن ما حدث قبل أيام جعلني أصدق كل ما أسمعه عن كرامات الشهداء، فعندما فتحنا القبر وجدنا الشهيد سمير كما تركناه قبل خمسة عشر عاماً، وكأنه استشهد قبل ساعة واحدة"... بهذه الكلمات علق ماهر كتوت من البلدة القديمة في نابلس، حينما شاهد كما المئات غيره واحدة من تلك الكرامات، فقد كان جسد الشهيد سمير شحادة، الذي استشهد قبل خمسة عشر عاماً سالماً من أي تغيير، كان على حالته يوم استشهاده!!.

والقصة الكاملة التي رواها الثقات ممن شاركوا فيها، نُشِرت في الصحافة[1]، حيث كان الشهيد سمير من نشطاء الانتفاضة الأولى، فكان شغله الشاغل مقارعة الاحتلال، يشارك برمي الحجارة، والقنابل اليدوية، المصنوعة محلياً على اليهود.

---

[1] السبيل عدد ٥١٢ تاريخ ٢٠٠٣/١٠/٤م والمصدر من فلسطين المحتلة (نابلس) سمير خويره.

وكـان دائـم التمنـي والتغنـي بالشـهادة. وفعـلا نـال مـا تمنـى ففـي ١٩٨٨/١٢/٢٨م استشـهد فـي حـي الياسمينة – نـابلس، ودُفن فـي مقبرتها. وكانت وصية والدته المتعلقة به، أن تدفن عند موتها في قبر ابنها سمير. وقدر الله - تبارك وتعالى - أن تموت بعد خمسة عشر عاماً في ٢٠٠٣/٩/٢٧م، فاجتهد أولادها في استفتاء أهل العلم بالسماح لهم بتنفيذ وصيتها، لتدفن حيث أوصت. وقد كان لهم ذلك، كما يقول ابنها عامر شحادة ظناً منهم أن مده خمسة عشر عاماً كافية كي لا يبقى من جسد شقيقه سمير إلا عُظيمات بسيطة.

ولكن الأمر كان على غير ما ظنوا، فيقول عامر إنني لا أتحدث عن رائحة المسك أثناء فتح القبر، ولكن هلّل الناس وكبروا عندما وجدوا المفاجأة الكبرى. وجدوا جسد الشهيد سمير كما وضعوه قبل خمسة عشر عاماً، لم يأكله الدود، ولم يتحلل، ولم يتفسخ، ولم يتغير... حتى ملابسه لم تتلف وعندما لمسناه وجدناه مازال مبلولاً من مياه الأمطار التي تساقطت يوم استشهاده... وكذلك رأسه كان مبتلاً ... وكان شعره ممشطاً كما لو أنه قد سرحه قبل لحظات.."

ويتابع شقيقة عامر شحادة قائلاً: وزادت دهشتنا عندما هممنا بتحريكه لنفسح المجال لدفن والدته... فإذا بجسده ما زال

دافئاً ودماؤه الحارة ذات اللون الأحمر القاني تسيل من جديد وكأنه أصيب قبل دقائق معدودة...".

الله أكبر ... تهتف بها قلوبنا، وتخشع لعظمتها نفوسنا، أمام هذه الكرامة العظيمة، التي توقفت بسببها السنن، تكريماً للشهداء، الذين شهد الله لهم بصدق النية، وصلاح الطوية، وحسن السيرة، ونبل المسيرة ... وشهد الناس عظمتهم في البذل والتضحية والفداء ... !

وتتوالى قصص شهداء الأرض المباركة، شهداء الأقصى، فهذا الشهيد محمد ريحان الذي استشهد في ٢٠٠٢/٢/١٨ في بلدة تل، جنوب غرب نابلس، يفاجأ شقيقه جعفر، ومن كان معه من العائلة، وأهالي بلدته، عندما كشفوا عن جثمانه بعد مائة يوم من استشهاده، بغرض تجهيز القبر جيداً، وبالطريقة الصحيحة.

فوجئ الجميع برائحة المسك تفوح بعبقها من الجثمان لدى رفعهم بلاط القبر، وقد كان الذهول واضحاً على الجميع، عندما وجدوا دم الشهيد ما زال ساخناً، وعرقه على جبينه، وقد مسحه شقيقه جعفر أمام الناس، الذين انشغلوا بالحمد والتكبير، والشكر لله على كرامة الشهيد. ويقول شقيقه: إن منظر أخيه في القبر يوحي بنومةٍ هادئةٍ هانئةٍ وقد هم بإيقاظه..!!

أما الشهيد محمد أبو زيد الذي ولد في رمضان، ولاقي وجه ربه وهو صائم، في السابع من رمضان ١٩٨٨/٤/٢٣م، في بلدة قباطية جنوب جنين، في مواجهة مع جنود العدو، حيث أصيب ببضع رصاصات، فارق الحياة على إثرها، وصعدت روحه إلى بارئها، وقد صور هذه اللحظات مصور صحيفة شنسرين الالمانية[1]، وقد حاول اليهود اختطاف جثته، ولكنهم فشلوا، ودفن جثمان الشهيد في المقبرة، وعاد الناس للإفطار في بيوتهم، إلا محمد أبو زيد فقد كان إفطاره في الجنة؟ وكان الناس يتحدثون عن رائحة العطر الفواح، الذي كان يفوح من بقايا دمه هنا وهناك.

وقدر الله أن يستشهد شاب آخر من القرية نفسها، ولكن بعد ثمانية اشهر من استشهاد محمد أبو زيد. وحُمل للدفن في نفس المقبرة، وكان قدراً أن حفروا له قبراً بجانب قبر محمد أبو زيد، فانهار جزء من قبر محمد، فبدا جسم الشهيد محمد، كما دفن لم يتغير، ولم يتحلل، وكان كيوم دفن، قبل ثمانية أشهر، كرامة من الله – تبارك وتعالى – لهذا الشهيد المقدام.. ودفعة إيمانية قوية للناس الذين رأوا هذا المنظر المهيب، الذي يجعل من الشهادة أمنية حقيقية يطلبها ويسعى إليها كل من يفكر بالجنة.

---

[1] كتاب الطيور الخضر، ج٢، حافظ الكرمي ١٩٩٣م.

وكـأن الله - تبـارك وتعـالى - قـد اطلـع علـى المسـلمين، حكامـاً ومحكـومين فـي أنحـاء العـالم، فوجـدهم وهـو بهـم أعلـم، لا هـين ومفـرطين أداروا ظهـورهم للجهـاد، وانغمسـوا بمشـاغل الـدنيا وملـذاتها، وتركـوا إخـوانهم المجاهـدين فـي فلسـطين، يقـارعون بأيـديهم المتوضـئة، وصـدورهم العاريـة، إلا مـن الإيمـان بـالله، والعامرة بالقرآن الكريم، يقارعون جيشاً مدججاً مدعوماً بكل أنـواع السلاح والتكنولوجيا... تركوهم بلا سند مـادي ... فـأراد الله – الـذي يمهل ولا يهمل – أن يوسِّع على المجاهدين في الصبر والإيمـان ... فـأظهر لهـم هـذه الكرامـات، التـي يسـتحقونها، ليرفـع معنويـاتهم، ومستوى إيمانهم، ويثبتهم على الحق، ويطمئن قلوبهم بـأنهم علـى الطريق الصحيح ... لا يضرهم من خذلهم ولا من انفض عنهم ولم يساندهم"... وَاللّـهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّـاسِ لاَ يَعْلَمُـونَ"[1].

والسلسة طويلة وطويلة جداً... والقافلة تسير ... والجنة ترحب وتزدان..! وقد ذكر الشهيد جمال سليم الدامونـي فـي كتابـه الشهادة والشهداء[2] يقول: " لقد شاهدت بنفسي وشاهد معي كل

---

[1] الآية ٢١ من سورة يوسف.

[2] كتاب الشهادة والشهداء للشيخ جمال سليم الدامونـي ، ١٩٩٩، وقد استُشهد هذا الشيخ في نابلس بتاريخ ٢٠٠١/٧/٣١

من شارك في دفن الشهيد على عاصي، من قرية قراوة، في منطقة نابلس، والذي استشهد بتاريخ ١٩٩٤/٧/١١م، فقد ظل تراب قبره يفوح مسكاً ورائحة عطره طيبة لأيام طويلة، بل أني احتفظت بحجر من قبره ظل مده طويلة تنبعث منه رائحة طيبة عطره".

وقد رثى الشاعر الفلسطيني محمد شحادة الشهيد القسامي علاء الدين محمد عياد بعد استشهاده بيومين، بأبيات شعرية توقع فيها أن تخلد السماء اسمه، وتبعث بعلاء جديد، حيث قال:

هذا الفتى تكتب الأمجاد سيرته فيأتيه فخراً بالعلاء علاء

ولكنه لم يكن يتوقع أن يكون الجواب بهذه السرعة، ولم يكن يعلم أن السماء ستلبي النداء بهذه الكيفية. حيث شهدت بيت لحم مكرمة ربانية يتوافد على رؤيتها الآلاف، الذين يؤمون أحد البيوت الكائنة بمخيم عايدة للاجئين، لمشاهدة طفل رضيع اعتبره البعض معجزة رزقت به عائلته في ليلة القدر.

وتبدأ القصة بأن يوصي الشاب علاء عياد ، المجاهد القسامي صاحب السمعة الطيبة، والسلوك المشهور بالاستقامة، شاب تعلق قلبه في المسجد، ومن حمله كتاب الله، يجاهد لإعلاء كلمة الإسلام، هذا الشاب يوصي شقيقه إياد، الذي كانت زوجته في بداية حملها، أن يسمي مولوده "علاء" إذا كان قد كتب الله للموصي الشهادة.

وتمر الأيام والمجاهد يبحث عن الشهادة، ويعمل لها حتى رزقها، على إثر الجريمة البشعة التي ارتكبتها الوحدات الخاصة الصهيونية في ٢٠٠٣/٣/٢٥م، بالقرب من فندق شبرد، بمدينة بيت لحم. وقد توافدت أعداد كبيرة من المواطنين على منزل العائلة في مخيم عايدة، بالقرب من مدينة بيت لحم، لتقديم التهاني بإحراز هذا الشرف العظيم، ورغم أن العدو حاول أن يمحو ذكر الشهيد في الدنيا بقتله، إلا أن الله - تبارك وتعالى - أدخله سجل الخالدين، وأحيى اسمه في الدنيا، ولكن بلون جديد، وطريقة جديدة، وغير معتادة، وأدخله وإخوانه مع النبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقاً، وتمضي شهور الحمل عند زوجة شقيق الشهيد بسلام، وينمو الجنين، وتتدخل العناية الإلهية، لتخلد الشهيد، ويرى الناس ذلك بأم أعينهم. فقد ولد الجنين في المستشفى الفرنسي بمدينة بيت لحم، في ليله القدر من شهر رمضان المبارك، ليكون مولوداً ذكراً، مسطراً على خده الأيمن اسم عمه الشهيد علاء. وكان مفاجأة، بل بشرى خير للعائلة كاملة، بل للناس جميعا، الأحرف الثلاثة الأولى من اسم الشهيد علاء واضحة غاية الوضوح، على الخد الأيمن، في حين يظهر الحرف الرابع " الهمزة" خلف الأذن بشكل واضح. وقد توافد أكثر من ستة آلاف مواطنن من محافظات بيت لحم والخليل والقدس، منهم المسلمون ومنهم غير ذلك، منهم أطباء وأكاديميون من

الجامعات المحلية، إضافة إلى عدد كبير من الصحفيين، ومحطات التلفزيون المحلية والفضائية، على منزل العائلة، لرؤية هذا الطفل بل هذه المعجزة. وقد ظهر ذلك مراراً وتكراراً على شاشات التلفزة، والصحف الأجنبية والمحلية، وعلى صفحات الإنترنت (شكل رقم ١٣).

صورة الطفل وقد بدت على خده كلمة علاء وإلى جانبه صورة عمه الشهيد علاء.

هذا الطفل سُمي علاء، على اسم عمه الشهيد، حسب توصيته، وكأن الشاعر الذي رثى الشهيد كان يعرف بأن علاء الجديد، سوف يأتي من جديد وقد توشح خده باسم عمه الشهيد علاء:

هذا الفتى تكتب الأمجاد سيرته فيأتيه فخراً بالعلاء علاء.

وصدق هذا الشاعر، فقد مُجِّد في الأرض، ورزق كرامات، وخلوداً في جنان النعيم. وما هذه القصص إلا غيض من فيض ، وقبس من مشكاة، وهناك ما هو أكثر، فجميع الشهداء يشتركون في ظاهرة الرائحة الطيبة، والمسك الفواح من أجسادهم، وأماكن نومهم، حتى من زوجاتهم وأمهاتهم، فزوارهم يشمونها بكل وضوح، بالإضافة إلى السرعة التي تمشي بها جنائزهم، فتراها وكأنها تركض، والذين يحملونها لا يبدو عليهم أنهم يرفعون ثقلاً على أكتافهم، إشارات خير وبشرى، تطمئن قلوب ذويهم، وتشحذ همم محبيهم، كيف لا ونحن نرى أن كل شهيد ينبت خلفه مائة، كل ينتظر دوره بفارغ الصبر، ليلحق بصحبه من أهل السابقة، هتافه الذي بين جوانحه "... وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى "[1].

---

[1] الآية ٨٤ من سورة طه.

والقافلة تسير.....!!

الشهادة مقرونة بالجهاد، ومعلقة به تعلق الروح بالجسد، وما دام في هذه الأمة قرآن يتلى، وسنة تُحفظ، فإن راية الجهاد لن تُنكَّس، ودم الشهداء لن يجف أو يبرد، خاصة على ثرى هذه الأرض المباركة، التي لا يوجد فيها شبر إلا مشى عليه نبي كريم، أو اختلط بدم شهيد.

إن كل ذرة من ترابها تعبق مسكاً من دماء الشهداء، التي روت سهولها ووديانها وهضابها وجبالها، إن كل ذرة رمل أو صخرة أو شجرة أو ربوة، فوق هذه البلاد، تحكي قصة مجاهد، وتروي حكاية شهيد من شهداء السلف الصالح، من الصحابة والتابعين، ومن حمل لواء الجهاد بعدهم، إلى يومنا هذا، ثم من يلحق بهم من الخلف الصالح، إلى أن يأتي الله بأمره.

هذه الأرض المباركة مهد الحضارات، ومهبط الأنبياء، وسط العالم ومركزه، تتصارع عليها الأمم منذ القدم، وستبقى معركة الحق والباطل قائمة عليه، حتى يرث الله الأرض ومن عليها... فما أصح ما قاله الرجل الصالح الخضر، الذي ذكره الله في قرآن يتلى إلى يوم القيامة " فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِن عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن

لَدُنَّا عِلْمًا "[1]، حيث أجاب نبي الله موسى – عليه السلام – كما ورد في الحديث الصحيح "... فسلم عليه موسى فقال له الخضر أنَّى بأرضك السلام..."[2] أي ومن أين لأرضك السلام... فهذه الأرض المباركة لن تعرف السلام الحقيقي، فهذا قدَرُها وقدَر أهلها، وما أحسنه من قدر...!

فهو تكريم من الله لساكنيها، فهم في رباط إلى يوم الدين، يؤجرون عليه ويثابون. وهو اصطفاء واتخاذ واختيار إلهي، وشهادة عظيمة للطائفة المنصورة بإذن الله "في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس.."[3] فهم في جهاد مع أعدائهم إلى أن يأتي أمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولذلك ستستمر هذه الأمة بتقديم قوافل الشهداء، قافلة تتبعها قافلة إلى أن تقوم الساعة.

قافلة الشهداء أولها مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الجنان العلا، وأفرادها يرددون صوت حاديهم:

---

[1] الآية ٦٥ من سورة الكهف.

[2] حديث صحيح رواه مسلم في قصة سيدنا موسى مع الخضر كما وردت في سورة الكهف، وورد فيه ما معناه أن هذه الأرض لن تعرف السلام ... فهي في صراع مستمر.

[3] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس" رواه أحمد.

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
فمنهم من قضى نحبه راضياً مرضياً عنه، ومنهم من ينتظر. وما اكثر المنتظرين كلهم يعمل بإقبال منقطع النظير، وبلهفة وشوق، يرددون قول من قال: "غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه".

والناس في هذه الأرض الطيبة بين صغير تَفَتَّحت عيناه على الشهادة وحُب الاستشهاد، حتى أصبحت نشيده الدائم، وكبير يعمل ويأمل أن يختم حياته بما يرضي ربه... وهل هناك أرضى لله من جهاد في سبيله، وقائد المجاهدين- صلى الله عليه وسلم - يقول: "لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها"[1].

والمسلمون هم بين من مَنَّ الله عليه، فقدّر عيشه وجهاً لوجه مع أعداء الله، فهو في معركة فعلية ميدانية مستمرة، يتمنى لقاء ربه في شهادة تطال كل جسده، وبين مسلم يتوق للشهادة، يرقب عن بعد سكنات المجاهدين وحركاتهم، يتحرق للحاق بهم، فيقعده عن مراده مرض مسهد، أو هرم مقعد، أو فقر مجهد، أو عدو قاطع للطريق، أو ظالم يحبسه في داره.

ولكن لطف الله ورحمته بنا نحن، الذين كبلتنا القيود، وحالت موانع ذاتية وخارجية بيننا وبين ما نشتاق إليه، من جهاد

---

[1] رواه مسلم.

حقيقي ومباشر، ونصرة فعلية لإخواننا.. لطفَ الله بنا أن لم يجعل سلطاناً لسايكس ولا بيكو على نوايانا، فالنية طليقة، لا تقف أمامها السدود ولا الحدود والقيود، التي تكبل الأجساد، فهي عمل قلبي، والقلب لا سلطان عليه لغير صاحبه.

فمهما ضعفت الأجساد، وخفتت الأصوات، وحوصرت بحدود وهمية مصطنعة، فقلوب المسلمين في أرجاء الأرض حرة طليقة، متعلقة بمسرى نبيها[1]، تتوجه إلى الله في السراء والضراء، أن يرزقها شهادة تضمها إلى قافلة العز والكرامة، قافلة الشهداء، وتلحقها في سجل الخالدين ... فنم قرير العين يا شهيد.

الشهيد النائم.

---

[1] قال تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير" الإسراء ١ .

شاهد وشهيد

وبعد:

فإننا نخلص مما سبق إلى جملة من الحقائق التي لا بد من التذكير بها والتركيز عليها وهي:

أولها: إن لله في خلقه شئون لا يعلمها إلا هو، ويُصرِّفها كيف يشاء. ولا نعلم منها إلا اليسير، رغم تقدم العلوم وتراكم المعارف. وكل مخلوقاته تسبح بحمده وهي طوع أمره "وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ وَمَا هِيَ إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ "[1].

ثانيها: إن الشهادة اصطفاءٌ، واختيارٌ، واتخاذٌ، بل وتكريمٌ من الله تبارك وتعالى للخُلَّص من عباده المجاهدين، فهو وحده المطلع على نواياهم، وعظيم تضحياتهم وجهودهم. فهم مكرمون في الدنيا والآخرة. وما حفظ أجسادهم إلا غيض من فيض الامتيازات الربانية التي أعدها لهم.

ثالثها: شهادة الميكروبات على كرامات الشهداء هي شهادة صامتة، صادقة، بليغة تصدر من أصغر ما عُرف من جنود الله لأوليائه المخلصين. تدلنا على تكريمه لهم وحُسن قبولهم عنده،

---

[1] الآية ٣١ من سورة المدثر.

تقديراً لصنيعهم والتزامهم بأوامره "لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ"[1].

رابعها: هذه الشهادة، بل هذا التكريم الإلهي للشهداء، هو دليلٌ على صواب الطريق، وصحة المسيرة، فيجب أن يكون دافعاً لمزيد من العمل والتضحية؛ طمعاً بما عند الله تبارك وتعالى لا دافعاً إلى الركون والدعة والتباطؤ.

خامسها: ونحن أمام شاهد وشهيد. شاهد دقيق قام بواجبه طاعة لخالقه وتنفيذاً لأوامره، وشهيد عظيم لبى نداء ربه دفاعاً عن دينه. فإن عَجَزْنا أن نكون شهداء فلا أقل من أن نُدلي بشهادة صدقٍ تُغْدِقُ مالاً ودعاءً وثناءً وتكريماً لهؤلاء، اعجاباً بما يصنعون.

" وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ "

والحمد لله رب العالمين.

---

[1] الآية ١٢ من سورة الحاقة.

المراجع العربية

١. آيات الرحمن في جهاد الأفغان – الدكتور عبد الله عزام، الطبعة الثالثة – مكتبة المنار – الأردن عام ١٩٨٧م.

٢. أصول الطب الشرعي – الدكتور محمد أحمد سليمان، الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

٣. التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة – شمس الدين أبو عبد الله الأنصاري القرطبي، دار الكتب العربية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٨م.

٤. الترغيب والترهيب – الإمام الحافظ زكي الدين المنذري، دار الفكر ١٩٨٨م.

٥. تهذيب سيرة ابن هشام – عبد السلام هارون – مؤسسة الرسالة، دار البحوث العلمية – الكويت ١٣٧٤هـ.

٦. تهذيب كتاب مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق في فضائل الجهاد – تهذيب الدكتور صلاح الخالدي – الطبعة الأولى – دار النفائس – عمان ١٩٩٩م.

٧. الجهاد – عبد الله بن المبارك – تحقيق نزيه حماد – الدار التونسية للنشر ١٩٧٢م.

٨. الديباج – عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي – تحقيق أبي اسحق الحويني – الطبعة الأولى – دار ابن عفان – السعودية ١٩٩٦م.

٩. السبيل – عدد ٥١٢ تاريخ ٢٠٠٣/١٠/٤م.

١٠. شرح العقيدة الطحاوية – ابن أبي العز الحنفي – المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ.

١١. الشهادة والشهداء، أحكام الشهيد في الشريعة الإسلامية – جمال سليم الدامونى- منشورات مجلة فلسطين المسلمة، الطبعة الأولى – لندن ٢٠٠٠م.
١٢. صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير, الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٧م.
١٣. صفة الصفوة – عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج – تحقيق الشحات – دار المنار ٢٠٠٣م.
١٤. صفوة الصفوة – عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج – تحقيق: محمود فاخوري والدكتور رواس – دار المعرفة – بيروت ١٩٧٩م.
١٥. صور مضيئة من حياة الشهداء ووصاياهم – محمد فايز – الطبعة الأولى - دار ومكتبة الحامد – عمان ٢٠٠٤م.
١٦. الطب الشرعي – الدكتور زياد درويش – منشورات جامعة دمشق – الطبعة الثانية ١٩٩٦م.
١٧. الطب القضائي وآداب المهنة الطبية – الدكتور ضياء نوري حسن – وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – الجمهورية العراقية ١٩٨٥م.
١٨. الطيور الخضر، نماذج مضيئة من شهداء الانتفاضة المباركة في فلسطين – حافظ الكرمي – توزيع دار الفرقان – عمان ١٩٩٣م.
١٩. ضرورة العلم، دراسات في العلم والعلماء – ماكس بيروتز – ترجمة وائل أتاسي والدكتور بسام معطراني – عالم المعرفة رقم ٢٤٥ – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت ١٩٩٩م.

٢٠. عجائب الميكروبات السبع – الدكتور عبد الحميد القضاة – الطبعة الأولى – عمان ٢٠٠٤م.
٢١. لسان العرب – جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور – الطبعة الأولى – دار صادر – بيروت ٢٠٠٠م.
٢٢. مختصر صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - الطبعة الثالثة - بيروت ١٩٧٧م.
٢٣. مصنف عبد الرزاق – أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني – تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي – المكتب الإسلامي – بيروت ١٤٠٣هـ.
٢٤. مقدمة في ميكروبيولوجيا التربة – مارتن الكسندر – نيويورك ١٩٨٢م.
٢٥. ملامح الإنقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز – الدكتور عماد الدين خليل – الطبعة الثانية – الدار العلمية – بيروت – ١٩٧١م.
٢٦. المنجد في اللغة والأعلام – مردنان توتال – الطبعة ٢٨ – دار الشرق – بيروت ١٩٨٦م.
٢٧. النمل الأبيض (الأرضة) – منشورات وزارة الزراعة الأردنية – المركز الوطني للبحوث الزراعية ونقل التكنولوجيا – المهندس عبد القادر قاسم والمهندس مروان عبد الوالي – مديرية نقل التكنولوجيا والتدريب ٢٠٠٣م.

المراجع الإنجليزية

1. **Clinical dermatology by J. Hunter, J. Sauin and Mark dahl, 2002.**
2. **Medical Microbiology by Jawetz, Melink and Adelberg, 20th edition, 1995.**
3. **Biocorrosion website, interact@port.ac.uk - updated July 2002.**
4. **MIC of Stainless Steel as model, system to study Metal – Microbe interactions corrosion by Lewan Dawski and Hamilton, 1-14 2002.**
5. **Rats, Lice and History by Hans Zinsser, 1935.**
6. **Scientific Nature by Zinard and Steiven, 2003.**
7. **Life and the immune system. Scientific American, a special issue, New York 1994.**
8. **Soil Microbiology by S. A. Waksman, 1957.**
9. **Introduction to Soil Microbiology by Martin Alexander London 1961.**
10. **Forensic pathology by Bernard knight, 2nd edition, London 1996.**
11. **Simpson's Forensic Medicine by Bernard Knight, 11th edition, London 1995.**
12. **Microbiology, an introduction by Tortora, Funke and Case, 7th edition, New York, 2003.**

13. **The Bacteriology of normal skin, by Kligman, in Skin bacteria and their role in infection. Edited by Maibach and Hildick – Smith, New York. 1965.**